عبد الحميد سعيد بك

عبقريٌّ حقًا كما تَعنى اللغة بهذا اللفظ، فهو طويل بائن الطُّول، عريض وافر العرض، وَافِى العُنق، بعيد ما بين المَنْكبين، شديد المُنَّة، مفتُول العَضَل، إذا تمثّل إليك حسبته بقيّة من هياكل سليمان ! ضخم الرأس والوجه، تدور من حوله لحية كأنها إحدى الآجام، بَسَقَتْ حول بعض الآكام ! لم يَقُمْ عليها منْجَل البستانىّ بالتقليم والتَّشْذيب، ولم يتعهَّدها مَقَصُّه بالتسوية والتهذيب، ولو قد رفعت النظر إلى أعلى وجهه ثم تراخيتَ به إلى أسفل ذقنه، لرأيتَ ثَمَّ مُثَلَّثًا متساوى الساقَين! أما روحه الذى بين جنبيه، وأما عزمه الصائل فى نفسه، فأشبه بسكّان هياكل سليمان ، منهما بغرائز بني الإنسان ؛ فهو مارد النفس والقوّة مارد العزم والفُتُوَّة!

نشأ منشأ بنى الأعيان يُدَلِّيهم أهلُوهم إلى المدارس ليُحْرزوا الشهادات ثم يخرجوا إلى خدمة الحكومة؛ وتلك الغاية عند جَمْهَرة أعياننا تُشَدّ إليها الرحال، وتتناهى عندها مُرْسَلات الآمال؛ على أن التلميذ عبد الحميد سعيد لم تكد تَتَفَتَّح نفسه لفهم ما فى الدنيا حتى كان له فى أسباب الحياة غير ذلك الرأى، لم يَر الزادَ كلَّه فى أن يرسم خريطة إيطاليا، وأن يجيد الجَزْرَ التكعيبىّ، وأن يستظهر من «الكتاب الرابع» بابىّ الاشتغال والتنازع ليخرج، فى النهاية «فى العشرة الأول» ، بل أدرك من شباب سنه أن له وطنًا، وأن هذا الوطن يتحكّم فى شأنه غيرُ أهله، وأن واجبه، مادامت بلادُه محتلةً مضيَّعة الحق، أن يكون جنديًا لمصر قبل أن يكون طالب علم فى مصر، وعلى ذلك اتصل هذا الفتى بدُعاة الوطنية ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس إلى حديث الوطن ، وإذا كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها إجازة الحقوق «ليسانس» فقد اختلس الدرس والمذاكرة لهما من وقت «الوطنية» اختلاسًا!

ويهاجر صاحبنا إلى باريس يدعو لمصرَ، ويرفع للعالمَ حجَّتها، ويجاهد فى سبيلها بما يملك من المال واللّسان والقلم، ويتخذ هناك بيتًا يُصبح مَثَابةً لدُعاة مصر خاصةً ودُعاةِ أمم الشرق المظلومة عامّةً، يجتمعون فيه الفينة بعد الفينةِ ليأتمروا فى شأنهم ويستفْصحُوا للدعوة مناهجهم.

وتَنْهَدُ [1] دولُ البلقان كافّة لحرب الدولة العليّة، وتُجَرِّد عليها كل مُهْلِكة من آلات القتال، كما تحرّك عليها كل ما تغلى به صدور القوم من التعصب الدينى، فيركب عبد الحميد إلى البلقان جَناح النَّعامة، وإذا هو جُنْدىّ فى لباس العسكر وسلاحهم ، وإذا هو يأبى إلا أن يقاتل دائمًا فى الصف الأوّل، حتى يقع ذات ليلة فى إحدى الوقائع جريحًا يترسّب [2] فى دمه إذ قد انحَسَر عنه قومه وأقبلت خيل البلغار، فما زال يتخلّج من دونها ويتحرّف عنها يتستّر بالظلام ويتوارى فى جذوع الدَّوْح لا يبالى ما يَنْزِف من دمه المُهَراق حتى يبلغ على هذه الحال خطوط الترك ، ولولا هذا العون من الله ما وقعت عينٌ على وكيل مجلس نواب ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

وتدور بعد أولئك الأيامِ رحى الحرب العظمى فينخرِط عبدُ الحميد فى جندِها يتحوّل من ميدان إلى ميدان، كلما أهابت به دواعى الجِلاد والطِّعان، حتى إذا تهادَنَت الأمم المحتربة، وظهر الحِلْف الإنجليزى، وتكسّرتْ دولُ الحِلف الألمانى، وانطلقت يد إنجلترا فى مُلك الله تفعل ما تشاء ، هام صاحبنا فى فضاء الأرض يتبلّغ بالكِسرة، ويتروَّى بالصُّبَابة، وهو سليل بيت نشأ فى التَّرفِ وتقلّب فى النعمة، لا يَعنيه من أمره إلا أن يدعو حيث كان لمصر، ويهتف ، أنَّى وقع به القضاءُ، باستقلال مصر.

وما أنس لا أنس منظره يوم ٢١نوفمبر وقد جرّدت دولة زيور باشا كلَّ ما عندها من جيوش وخيول مَهْرِية، ورماح سَمْهرِيّة، وقَنى خَطِيّة، وكل عازفةٍ

---

(١) نهد لعدوه وإليه (من بابى منع ونصر) برز إليه وصعد له .

(٢) يتضرج فى دمه كأنه يرسب فيه لكثرته.

مُهَمْهِمة، وكل قاصفة مُدَمْدِمة، لتحولَ بين نواب الأمة وبين اجتماعهم؛ ويخرج عبد الحميد سعيد متسلحًا بعصاه التى تزن ٧٣ كيلو وقد تهيأ للحرب والطِّعان، فى سبيل اقتحام الصفوف إلى البرلمان؛ فكان منظره يومئذ «كالتانك» سواء بسواء!

وهو اليوم عضو فى مجلس النواب، إذ تحيّفت السِّنُّ من بعض فتوته، وطَامَنَ حكم الأيام شيئًا من جمَاحه، فترك حديثَ مُصَوَّع وهرر، فما زالت له قوة على الوثب إلى بلاد الأحباش، للبحث عن نهر الجاش [1]، دعك من أمر سِنَّار ، ومن خزّان مكوار!

وبعد، فقاتل الله العلم، وقاتل الله الاختراع الحديث ؛ فلولا ما أخرجا للناس من بنادق ومدافع، وآلات ساحقة، وغازات خانقة، وطيارات تحلِّق فى السماء، تمطر الجيوش ألوان البلاء، ومدرَّعات وطَرّادات، ونسَّافات وغواصات، ترمى بكل فاتك وبيل، من قذيفة وطربيل، لكان لعبد الحميد سعيد اليوم شأنٌ لا يقل عن شأن الزناتى خليفة، وأبى زيد الهلالى سلامة، والبردويل ابن راشد، وآصف شَراب الدماء، وأكفائهم من أبطال الحرب والطعان ، الذين سارت بشهرتهم الركبان، وسجل «التاريخ» بطولتهم على وجه الزمان! ولكن من سوء حظ عبد الحميد بك سعيد أنه يعيش فى القرن العشرين؛ ولا أدرى أكان بهذا قد ظلم التاريخَ ، أم قد ظلمه التاريخُ؟!

(١) كان عبد الحميد سعيد بك قدم استجوابًا فى مجلس النوّاب لوزير الخارجية يتعلق باتفاق بعض الدول على نهر (الجاش).

قبـــل مــا يلعـــب ! ....

فكرى أباظة !

متكوِّر الوجه، أَخْيَف العينين فى ضيق محاجر، مقرون الحاجبين، كأنما شُقّ عن فمه بعد أن استوى خَلْقه؛ متوافر اللحم فى غير بُدُونة بَيِّنة، ولو قد أَطلَقَ ، مع قِصَره، للشحم العِنَان لتمت عليه نعمة الله كلُّها، ولو رأيته فى إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها فلم يتعهدها مِنْجَل البستانى بالتسوية والتشذيب!

وفكرى، على هذا ! على هذا كله ! يكاد من خفة الروح يطير؛ ولعل مما يساعده على هذا «الطيران» شكله البالونى الخفيف! حلو النفس، حلو الحديث، حاضر البديهة، رائع (النكتة) ، لو هُيِّئ لك أن تجلس إليه عشرين سنة ما أحسست ضَجَرًا ولا سأمًا؛ يَسرّك حتى فى غضبه وحتى فى خصامه! وإن هذه الطُّرف البديعة التى يطالع الجمهور بها فى الصحف لقِطَعٌ من نفسه الفَنّانة اللعوب يُرسلها على القرطاس إرسالاً فى غير كلفة ولا مطاولة ولا عناء ؛ ولعلها بهذا وحده تُشيع فى الأنفس كلّ ما تجد لها من أريحية ولذة وطرب.

وهو ذكى متعلم تام الاستعداد؛ على أنه صرف كثيرًا من هذا إلى تمرين تلك الموهبة العظيمة فيه حتى أدركتْ كلَّ هذا الإدراك، وحتى استأثر بهذا الفن البديع من البيان إن لم يكن قد خَلَقه فى بلاد العربية خلقًا! (١) .

(١) وقد ردَّ فكرى أباظة على الشيخ البشرى بعد أن اطلع على هذا المقال فى المرآة بصورة «كاريكاتورية» إلا أنه اعترف بتفوق البشرى وأنه سباق فى هذا المجال، وقد نشرت مجلة «السياسة» ما كتبه فكرى أباظة وفيها يسخر من صورة البشرى الخَلقية فيقول: «تشجَّع .. تشجَّع سيدى القارئ.. وحدّق فى هذه الصورة ، ثم قل فى سرك سبحان الخالق. يقول اللادينيون: إنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع. ويقولون أن عزرائيل تقدم إليه سبحانه وتعالى وقال : يا مولاى توجد طينة مخلوقات باقية فهل يسمح لنا بأن نتمرن فيها على خلق بعض المخلوقات، فسمح سبحانه وتعالى لعزرائيل وزملائه باللعب فى هذه الطينة المعدة للمخلوقات فخلقوا، إنما خلقة غير ربانى. =

= فإذا صح هذا القول ، فلا شك أن الشيخ البشرى من مخلوقات اليوم السابع، ولا شك إنه «مش خلقه ربنا» ولا شك أنه من أفاعيل عزرائيل.

ومع ذلك .. وهل هذه صورته.

(يشير فكرى أباظة إلى الصورة الكاريكاتورية المنشورة بجانب المقال).

وأقسم لكم سادتى القراء وأنا مستعد لإثبات دعواى، أنه قدم رشوة إلى مصور السياسة الأسبوعية كى يستخرج لكم صورة صناعية لا طبيعية، فأتت مزدحمة بالرتوش، وإلا فأين شعره المنفوش ، وأنفه المبطوش، ووجهه المنكوش.

هذه الخلقة التى لا تسر بلغ من خفة روح صاحبها أنك لا تملك فى بعض الأحايين إلا أن تقطعها تقبيلاً وعضًا، وإلا أن تعانقها طولاً وعرضًا، وإلا أن تهشكها رفعًا وخفضًا.

سر من أسرار الخالق أن يودع فى هذا الجسم البالى المهدم المهشم تلك النفس الحلوة الجذابة الخلابة.

وإنك حين تستمع إلى الشيخ عبد العزيز البشرى وهو يداعب تتلقى دروسًا عالية فى المفارقات والمفاجآت ، قريحة سيارة، وبديهة حاضرة، وذكاء مشتعل فى لغة عَربية بلغت من السمو منزلة عالية، وهو يرتفع بالنكتة البلدية إلى سماء البلاغة، ولا أدرى أى شيطان من شياطين الإنس والمرح هو الذى يهبط عليه بذلك الوحى والإعجاز ، فيفيض علينا بتلك الدرر العجيبة فيمتلئ الجو بالضحك والمتعة والفائدة مجتمعة متحدة.

ومضى فكرى أباظة يتناول شتى جوانب شخصية البشرى بالتصوير والتحليل ويصور مكانه فى عالم الأدب وبين جبابرة الأدباء، ثم أشار إلى ناحية هامة فى كتابات البشرى فهو لا يوقع على مقالاته التى ينشرها، وهذه العقبة تنغص عليه عيشه، وتظلم خاطره ، غير أنه عالج هذا المشكل، فهو حين يرسل إلى الجرائد مقالة بغير امضاء يوزعها على القراء قبل ظهورها، ولئن كان قراء الجرائد أربعين ألفًا، فتأكد أنه بلغ من المهارة فى الإذاعة والتوزيع والإعلان إلى درجة أن مقاله الذى تحت النشر يقرؤه قبل النشر خمسون ألفًا لا أربعون، فإن ظهر المقال استمر يوزع ويعلن ويذيع فيقرؤه خمسون ألفًا آخرون ، وتلك حرفة احتياطية يأمن بها غدر الزمن وتقلب الأحوال.

فلئن شاءت المقادير- لا سمح الله- أن يخرج من خدمة الحكومة سيكون أكبر متعهد للجرائد، يكتسح فى طريقه المعلم «أبو ريدة» ويصيب من النجاح ما لم يصبه المرحوم «عبد العظيم».

وأشار فكرى أباظة إلى عنصر ناتئ فى شخصية البشرى ، ومضى يظهره ويبرزه ويجلوه أمام العيان، وأعنى بهذا العنصر لسان الشيخ عبد العزيز .

=

وأخشى ألا يُعجب هذا الكلامُ الأساتذة: علام سلامة، ،ومصطفى صادق الرافعى، ومهدى خليل، وصادق عنبر، وأضرابهم من أصحاب اللغة. ولا أقول لهم إن لغتكم لا تتّسع لهذا الضرب من «النكتة» وأسباب التظرّف، ولكنّى أقول لهم : إذا أبيتم ألا يتندّر الناس إلا بالفصيح الصحيح فعليكم أولاً بتحفيظ الأمة كلّها المعلّقات السبع، والملحمات السبع، والمذهبات السبع، والمنتقيات السبع إلخ، إلى استظهار الكامل للمبرد، والأمالى للقالى، وصحاح الجوهرى ، ومخصَّص ابن سيده ، والأساس للزمخشرى إلخ إلخ! وأنا زعيم لكم بأن الناس لن يعودوا يسمعون فى أعراس «أولاد البلد» فى خلل الغناء فى «قافية أسماء الشوارع» مثلاً : اللى على جتّتك ! اشمعنى؟ الضرب لحمر! بل سيسمعون بدلها إن شاء الله: هذا البادى على جُثْمانك!.. ما بالُه ؟ من أثَر المَشْق بالسِّياط!

وعلى ذلك فقد حق على هؤلاء وأمثالهم أن يُطلِقوا للناس حرية القول والكتابة فى طُرَفهم وسائر حاجاتهم حتى يتهيأ للأمة أن تستحيل كلها «شناقطة» و«حماميز فتوح الله» بإذن الله!

نعم لقد (تخصّص) الأستاذ فكرى أباظة فى هذا النوع من البديع وبَرَع

= فلسانه حاد كالمقص أو كالمبرد أو كالمشرط، وإذا جرَّده على جيش أباده، أو على عظيم هدمه وهشمه، ولكن أسلوبه، وأسلوبه دائمًا فى التشنيع والتقريع، والفخر واللمز والتبريح والتشريح، ينتهى دائمًا بابتسامة مرة كانت أو حلوة من المجنى عليهم على العموم. والطريف أن فكرى أباظة ردد المعنى الذى يردده البشرى دائمًا فى أن الشخصية ملك للجميع كقوله فى محجوب ثابت «فقد وجب بإزاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب وإنى أقترح على الحكومة أن تصدر قرارًا بنزع ملكيته وإضافته للمنافع العامة».

الطريف أن فكرى أباظة أسبغ هذه الصفة على البشرى نفسه فقال: فأنت عبقرى وعبقرى بلا جدال.

والعبقرية حين تتجلى يجب حتمًا أن تكون ملكًا للجميع ومشاعًا بين الجميع، لا يحتكرها فرد أو هيئة أو حزب.

فاقبل على مضض أن تكون كذلك ، وهذا وذاك ما فعلته وتفعله وستفعله إن شاء الله» . انظر السياسة الأسبوعية عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٢٦م.

فيه أيَّما براعة ، وهذا اسمه يرنّ به باعة الصحف صَباح كل يوم وظُهْره وَمَساءَ؛ ولو اجتمع لامرئ فى بلاد الغرب هذا «الفن» إلى هذه الشهرة لخرج فى أصحاب الملايين؛ ولكننا مازلنا فى طريق تقدير الفنون ؛ على أننا كنا نتهزأ بها وبأهلها من عهد قريب!

وإذا كان الفن أجدى عليه شيئًا فقد أجدى عليه حقًا عضوية مجلس النوّاب؛ وذلك الحظُّ العظيم. وعلى ذكر البرلمان أهمس فى أذن صديقى الأستاذ فكرى بكلمة صادق مخلص: اعلم يا عزيزى ، وفَّقك الله، أن وسائل النجاح فى شىء لا تصلح دائمًا وسائل للنجاح فى شىء آخر، فإذا كان كل ما أعده الأستاذ فكرى للبرلمان هو نفس ما يعده للصحف بلا زيادة ولا نقصان فأرجوه ألا يتكئ كثيرًا على عيشه الجديد! وليعلم «أن له ناخبين يتردّ عليهم» . وليس معنى هذا أن فكرى قَصّر فى أداءِ واجبه النيابى، أو أنه لم يكن له فى الأمر كفاية، ولكنا إنما نطمع فى أن يكون للبلد منه فى البرلمان، مثل مالها منه فى عالم البيان.

على أنه مما يعزِّينا فى هذا الباب أنه ما برح يتهجَّى البرلمانية فى مجلس النوّاب ، وذلك بابٌ يحتاج إلى ممارسة وطول اختبار وتمرين؛ أسأل الله أن يمدّ فى عمرى وعمره حتى أراه فى «سنة رابعة» شيوخ، خطيبًا «برلمانياً» لبقًا، لكن لا كالشيخين المحترمين: عزيز ميرهم ولويس فانوس!

وقد نسيت أن أذكر لك أن فكرى أباظة يشتغل بالمحاماة أيضًا، وأنه محام من الطراز الجيد، وأن له مكتبًا فى مدينة الزقازيق يطلبه الناس، وفيهم الجباه والسَّروات ، لتولِّى مُهمِّهم والدفاع فى قضاياهم، وأنه مجدّ فى مهنته، إن صح أن هذه مهنته؛ لَبِقٌ حسن التصرُّف مبسوط العلم بمداخل القانون. ومن هنا تعلم أن النبوغ فى فن لا يستهلك دائمًا سائر مواهب المرء الأخرى ولا أدرى أيكون من الخير أن يوزّع الأستاذ فكرى قواه

(١) المراد به وجهاء القوم .

على أمـرين معًـا أو على ثلاثة ، إذا حسبنا (البرلمان) شـغلة ثالثة ؟ أم أن الخيـر كله فى أن يتجرد لتربية تلك الموهبة الجليلة التى لم يشاركه فيها كثير، على حين يشاركه ويَبْرَعه فى غيرها كثير؟!!

والأستـاذ فكرى خَرَج من عـائلة كبيـرة جدًا كل أفـرادها متعلم ، وكلهم كسائر المتعلمين له فى السياسة رأى، ولكنى لا أُحصى فى هذه الآلاف «ما شاء الله» حزبًا وطنيًا إلا فكرى . ولعل هذه من إحدى طُرَفه كذلك!

على أن الأخلق به ألا يكون حزبًا وطنيًا من الطراز الجديد (Moderne) بل أن يكون وطنيًا قديمًا محجوبيًا لا يقنع بالسودان من منبعه إلى مصبه ومعه الملحقات وملحقات الملحقات؛ فإن فى الشرق القريب والبعيد بلادًا ضافية الأطراف، واسعة الأكناف، أولى بمصر أن تتولاها وصاية وانتدابًا ما دام الإنجليـز على رأى الدكتور ثابت ولعل الفرنسيين أيضًـا (مـا يقـولوش حاجة)!

ذلك هو الأخلق بطريق الخيال، وليُسْعد التمنى إن لم تُسْعِد الحال.

مُنَى إن تكن حقًا تكن أعذبَ المُنَى وإلا فـقـد عِشْنا بهـا زمنًا رَغْـدَا

ونعمة صارت إلى كانز كم حُجة فيها لزنديق

أحمد مظلوم باشا

لعمرى لو وقفتَ على عُنُق [1] من الناس فحاجَيْتهم: ما أطولُ الحظوظ فى أطولِ الأعمار فى أطولِ الأجسام؟ لأجابوك فى نَفَس واحد : مظلوم ! وجه طويل، على عنق طويل، على جسم طويل. ولو رأيته يمشى ولم تكن بعدُ عرفَته لخيِّل لك أنه «زفَّة بهلوان» وقف فيها رجلٌ على كَتِفَىْ رجل! وفى الحق أنه لو قدر - لا سمح الله - وأزيل عنقه وما فوقه عن كتفيه وما دونهما لتمثل منهما رجلان! أشبه ما يكون كل منهما بخَلْق مظلوم!

أُسطوانى الرأس، ساهى العينين، لو تأملت فيهما ما أعطتاك إلا أن وراءهما عدًا كبيرًا وزيغًا فى أرقام كثيرة! مرسل الأنف، رَحْب الفم، ممدود الذقن ، طويل اليدين والساقين. وإنى لأخشى أن ينكشف الزمن، ولو بعدَ حين، عن أن مظلومًا هذا رجُلان (اقتصاديان) اتصلا بحيلة لطيفة حتى خرجا للناس فى صورة رجل واحد توسُّلا بهذا إلى ألاّ يدفعا عند السفر إلا ثمن تذكرة واحدة ، وفى الفندق (الأوتيل) إلا أجرَ سرير واحد ؛ وفى المطعَم إلا عشاء رجل واحد، وللخياط إلا ثمن بذلة واحدة، والوقع أن من شهدوا مظلومًا وهو يتعشى لا يشكُّون فى أن «جماعة» بأسرها تأكل، فإن كان ، ولابدّ، رجلاً واحدًا فهو إنما يجتَرُّ ليومه الثانى!

وحَدثتك بأنه طويل الحظ، فقد خاض به حظُّه أهلَ الكفايات وأصحابَ العلم والاختبار فى عصره ، فتخطى به رقابَهم إلى الوزارة ، ويظل وزيرًا أو (ناظرًا) للمالية فى عهد اللورد كرومر قَرَابة ثلاث عشرة سنة إلى أن دالت الأيام لعهد السير غورست وانحرف وجه السياسة فهُدَّت تلك الوزارة هدّا.

ومظلوم أكفأ الإنس والجن لأن يظل (ناظرًا) للمالية ثلاثة عشرة سنة لا يلى أمرًا، ولا يُراجَع فى مسألة، ولا يُبدى رأيًا ، ولا يقرأ سطرًا، ولا يكتب

---

(١) أى جماعة منهم.

كلمة، ولا ينطق بحرف، حتى يقال له خذ متاعك لقد سقطَت الوزارة، فلا يجد ما يحمله معه إلا أنفَه وإلا يديه ورجليه، أستغفر الله! وإلا الختمَ! فنحن إذا أردنا أن نترجم لمظلوم باشا فى حياته الوزارية فإنما نترجم عن الختم، والله يعلم ما تعِب إلا الختم، ولا جَهد إلا الختم، ولا استحق المعاش الكامل (١٥٠٠ جنيه) فى الواقع إلا هذا الخَتم، فطالما دار فى غفلة مولاه وبَرَم ، وطالما نقش وبصم، وبدل من أحوال الدولة أحوالاً، وبدّد أعلاقًا وأموالاً؛ وبسط للشركات الأجنبية فى أرضها بسطًا، وأخرج عنها جلائل أملاكها قسطًا فقسطًا، فإذا حملتم للباشا أيها المصريون على هذا حمدًا أو لومًا فاصرفوه كلَّه إلى هذا الختم وحده، فإن الباشا والله لكاسمه مظلوم!

ويُدسَّى بعد هذا فى المعاش وقد نَيَّف على السبعين، وينقطع عن الناس خبره فلا يدرون أيكتبونه فى جريدة الأحياء أم يُدرجونه فى سجلِّ الأموات، ولكن يأبى له حظه الكبير إلا أن يبعثه بعد هذا بعثًا كبيرًا فيتولى صهره ووارثه محمد سعيد باشا رياسة الوزارة ويستقيل المغفور له الأمير حسين كامل (السلطان حسين) من رياسة الجمعية التشريعية فيجىء لها سعيد بصهره ومورّثه (بعد ٥٠٠ سنة) إن شاء الله مظلوم، فيزيد فى الإرث بمقدار ثلاثة آلاف جنيه فى العام مرتب رياسة الجمعية، من فوقها خمسمائة بدل ولائم، وسعيد كان أكيس من أن يظن أن مظلومًا (يقل عقله) ويصنع فى عمره لأى كان وليمة واحدة! وتدخل العامة وتقف الجمعية التشريعية ويظل مظلوم (يحز) على الحكومة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه كل عام، حتى يأذن الله ويعلن حلها فى آخر سنة ١٩٢٤ من حيث بدأت حياةُ البرلمان؛ على أن حظ مظلوم لم ينحلَّ بانحلال الجمعية التشريعية، فقد انزلق أيضًا إلى مجلس النوّاب بل أضحى له رئيسًا، ثم صار وزيرًا للأوقاف أيضًا يقتضى من الراتب ما يقتضى الوزراء!

ومظلوم باشا غنى فظيع الغنى، يجرى وراء الدنيا والدنيا تجرى وراءه حتى لم تجد بين أولئك الملايين الذين يحرزون سندات بلدية باريز عائلاً مسكينًا محتاجًا تحبوه نمرتها الرابحة (١٠٠٠٠ جنيه) إلا أحمد مظلوم! وله عمارات هائلة، وأطيان تُعْيي مصلحةَ المساحة ، وأوراق مالية يُخطئها العدّ،

ونقود فى المصارف لا تكاد تُحيط بها الأرقام ، إذ هو فى وسط كل هذا (يتيم) فرد لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا ولد، ولكنه رجل شديد البرّ بأهله من أولاد الإخوة وأولاد الأخوات،فإنه ليضن على نفسه بالدانق والسحتوت، ويقمع نفسه عن التطلع إلى شىء مما تتطلع إليه أنفس الناس من ملاذ الدنيا ومُتَعها إيثارًا لهؤلاء ، فهل رأيت برّا أعظم من هذا البر، وإيثارًا أبلغ من هذا الإيثار؟!

وكان له بيت يسكنه فى محطة (مظلوم) بالرمل، فلاحظَ أحد أصدقائه أنه اتخذ لجلوسه غرفة لا تصلُح لهذا فى حين قد امتلأ البيت بأحاسن الغرف، فراجعه فى هذا حتى فطن إلى أن الباشا إنما اتخذ هذه الغرفة لمجلسه لأن مصباح الشارع يقوم بإزائها فلا تجشمه نفقة الاستصباح!

وقد عمد إلى كل قصوره فشق فى كل جوانبها الحوانيت ومخازنَ التجارة حتى انتهى به الأمر إلى العيش فى «أوتيل كونتنتال» على أن يأكل فى «كلوب» محمد على، فإن الأكل فيه أضفى وأَمْرأ وأرخص!

وقد بنى له أخيرًا بيتًا صغيرًا (ڤيللا) بإزاء كلوب محمد على أقامها من طبقة واحدة ، ويتساءل الناس لماذا لم يقمها من طبقتين الأولى حوانيت ومخازن ، والثانية للسكن؟ فأجاب أحد الظرفاء بأنه سيبنى الدكاكين هذه المرة فى الطبقة العليا حين يعم نظام الطيارات إن شاء الله!

وبعدُ فما أعرف أحدًا أمتن صبرًا ولا أطول بالاً من هؤلاء المساكين ورثة مظلوم، فقد انتظروا أدهارًا والأعمار تتصرَّم ، والأنفس تتخرَّم، والباشا أحياه الله الحياة الطيبةَ، لا يزداد على الأيام إلا قوة، ولا يكسبه طول السن إلا شبابًا وفتوّة. ولو كنتُ مكانَهم لقطعته فى أحد البنوك بحطيطة عشرة أو عشرين فى المائة كما تقطع الكمبيالات ، ويحيا مظلوم باشا بعد هذا كما يشاء !!

الوطنية الصحيحة تعمل كثيرا ولا تعلن عن نفسها

قاسم أمين

طلعت حرب بك [1]

لا أحسبك تستطيع أن تتصوّر «بنك مصر» دون أن تتصوّر معه طلعت حرب؛ ولا أحسبك تستطيع أن تتصوّر اسم طلعت حرب دون أن يتمثل لذهنك فى الحال «بنك مصر»!

وكذلك شاء القدر أن يَقْرُن اسمَ هذا الرجل بأجلّ الأعمال.

ولو أن رجلاً حدّثك من عشر سنين بأن سيكونُ فى مصر «بنك» يقوم على أموال مصرية ، وتقوم عليه أيدٍ مصرية، لرددتَ حديثه من فَوْرك إلى التزيُّدِ فى التمنى والمبالغة فى التخييل!.. ذلك أننا، ولا أكتمُك أشدَّ ما ألحّ علينا من العِلَل ، إنما كنا نتّكئ فى كل مهمّةٍ على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى أن يَصنَع الغير لنا! أما أن نضطلع بعِبئنا ونعالج شأننا بأيدينا، فذلك ما لم تكن تُطيقه أذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دبَّت إلينا الظنون بأننا لا نصلح لمعالجة عمل قومى، لا من عجز عن العمل ولكن من توهُّم العجز عن العمل، حتى توهَّنت نفوسنا، وانبرت عزائمنا، وانَخذَلت همَمنا، وشاع فينا ضَعفُ الثقة، والثقةُ وحدَها متَّكأ كل ما ترى من عظيمات الأمور، وإذا كنا قد عالجنا كثيرًا من المشروعات القومية ففشلنا فيها كلها، فذلك لأننا إنما كنا نُقدّر هذا الفشل بحكم ما مَلَكَ علينا أنفسنا من ضعف الثقة. وذلك شأننا كان فى كل ما نتطلّع إليه من مطالب الحياة!.

---

(١) هو محمد طلعت باشا بن حسن محمد حرب زعيم الاقتصاد المصرى ولد سنة ١٨٧٦م، وتخرج فى مدرسة الحقوق بالقاهرة ١٨٩٩م. وعين مترجمًا ، فمديرًا لبعض الشركات، ثم أنشأ شركة التعاون المالى، وبدأت شهرته برسالة عارض فيها مشروع مد امتياز شركة القناة ١٩١٠م. ودعا فى هذه السنة إلى إنشاء بنك مصرى فعورض ، وزادت دعوته إلى أن نجح ١٩٢٠م. فأنشأ بنك مصر ، وألحق به فروعًا وشركات ضخمة، وهو إلى ذلك باحث وكاتب له دراسات متعددة منها «تاريخ دول العرب والإسلام» ، و«علاج مصر الاقتصادى»، و«فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» ، توفى طلعت حرب سنة ١٩٤١م. انظر الأعلام (٦/ ١٧٥).

وأذنَ الله تعالى بالعافية وأحسسنا، بعد يأس، دَبيبها فى أنفسنا فى سنة ١٩١٩ وهَببنا أمةً تطلب ما تطلب الأمم، وتُهيِّئ كتفيها لتنهَضَ بما تنهض به فى سبيل مجدها الأمم.

ولست اليوم بسبيل ما قام به أبطال النهضة الوطنية جملةً، ولكننى إنما أطوف بالحديث اليوم حولَ قطعة منه وهى النهضة المالية، وحول بطل من أولئك الأبطال وهو طلعت حرب، وهيهاتَ أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح بأبلغَ ولا أصدقَ من أنه أقام لمصر «بنكًا» عظيمًا يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليها أيدٍ كلها مصرية ، وما شاءَ الله كان!

وإذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعدَ إذ تخاذل الناس وأصبحنا ولا تظنّ نفس بنفس خيرًا، فقدِّر أنت مبلغَ ما تسلَّح به هذا الرجل من عزم وثقة حسبهما أن ملآ كلَّ هذه النفوسِ عزمًا وثقة!

وإذا كان طلعت حرب قد أفاد فى سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ واستغلّ اشتعال النفوس بالوطنية، وتَنَادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف إلى العزم حزمًا، وجمع إلى الثقة والإقدام بصيرة وعلمًا ، ذلك أنه عَرف كيف يتخيَّر أسعد الساعات وأكفأها لنجاح مشروعه العظيم.

لم يكن نجاحُ بنك مصر مقصورًا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك، ولكن كان له نجاحٌ أوفى وأبلغ، هو أنه بثَّ فينا الثقة وردَّنا فى جليلات الأعمال إلى أنفسنا، وأقنعنا بالحسّ الصادق أننا فى مجال العمل، غيرُ أهل للخِذلان ولا للفشل؛ فهذه شركات جليلة يقوم بها طلعت حرب كذلك، ويرفدها بنك مصر أيضًا، وقد قامت كلها قيامًا كريمًا، ونجحت كلها نجاحًا عظيمًا:

هذه شركة للحليج، وهذه شركة للملاحة، وهذه شركة للطبع، ولعله ستتبعها شركة للغزل والنسيج ، وأخرى لصنع الزجاج ، حتى إنى لأخشى إذا تمادى طلعت فى هذه الشركات الناجحة أن يظنّ جَمْهَرة الناس أن لا نجاح لسعى الجماعة إلا إذا قام عليه طلعت حرب، وإلا إذا سانده بنك مصر؛ وفى هذه مَسَاءة قد تستغرِق ذلك الإحسان! فليتدبر طلعت وليتدبر رجال الأعمال.

وبعدُ فطلعت بك حرب وإن لحِقَتْه السِّنّ ما برح له عزم الشباب: حضور ذهن، وقوة تصور، ومتانة ذاكرة، وجَوْدة رأى، وصبر وجلد على معاناة كل ما يليه من أعمال جِسام.

وهو رَبْعَة بين الطول والقِصَر، غيرُ متَّسِق الجوارح؛ مستطيل الوجه، لا بالقسيم[1] ولا الوسيم، لا يُرضيك ظاهره؛ فإذا لابسته تكشَّف لك عن حسن محاضرة ، ولطف رُوح، وسلاسة نفس، على خلاف الظن به والرأى بادئ الرأى فيه !

وإذا استحال هذا الرجل شِعْرًا ما عدا أن يكون قصيدة فى ديوان أبى تمام، لا تُعجبك مطالعه على أنك تقع بعدها على أَرْوَع المعانى وأشرف الكلام.

ولقد تلقاه يومًا فيُطالُعِك بكل ما تَمْلك نفسُه من أُنسٌ وبِشْر حتى لتحسب أنه أضحى قطعة من نفسك إذ كنت أنت لم تُصبح قطعة من نفسه، ولقد تلقاه يومًا آخر فيتولاَّك بوجه عَبُوس تكاد تتمثّل فيه غَيْمًا ورَعْدًا ومطرًا حتى لتشعر أنك فى حضرة «زلزلة» لا فى حضرة رجل ؛ تُعينه على ذاك الأذى عينٌ خَيْفَاء ، فإن ترفَّقْتَ بها قلت عين حَوّاء ، حتى لتُطرِق وأنت تبتهل إلى ربك وتسأله أن يُلغى المال من الدنيا لكيلا تحتاج إلى رؤية طلعت حرب!! ولقد تتبحَّث الأمر وتتبيَّنُه فإذا هذا «الحرب» سلم كله، وإذا هذا التَّجَهُّم فى هذا الوجه لا يدل على أية غضاضة فى تلك النفس! إنما الأمر جميعُ الأمر أن الرجل تَنُوء به جلائل من الأمر فيها ما يَسُرّ وما يسوء ، وفيها ما يبسُط أسارير الوجه وفيها ما يُرَبِّد ضواحيه، ويعكر نواحيه ، وذلك الحظُّ الذى يدفعك إليه وهو فى إحدى الحالين، فلو ابتغيت قبل أن تُطالعه عَرَّافًا أو ضارب تخت رمل أو «فاتحة كوتشينة» لكان أرفق بك وأبيَن لحظك معه!

---

(١) القسيم والوسيم بمعنى واحد.

وإذا كان فى بعض طلعت حرب ما لا يُعجب بعضَ الناس فلأنهم لم يفهموه، وإذا كان فيه ما لا يَجْمُل بالرجل العظيم، فذلك أيضًا من خلال الرجل العظيم !

وإن تعجب لشىء فى شأنه فالعجب كله أنه عضو فى مجلس الشيوخ تعرض عليه ميزانية الدولة، وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية فى الدولة،فيجول فيها لويس فانوس، ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر، ويضرب فيها شيخ العرب يس أبو جليل بجِرَانه، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية فى مصر لا تُؤثَر عنه فيها طولَ «الدورة البرلمانية» كلمةٌ واحدة!!

ولعل هذا أنه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى يريد أن يربأ ببنك مصر وملحقاته عن أى نزاع سياسى على العموم أو حزبى على الخصوص، طلبًا للسلامة وإيثارًا للعافية.

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عمرٍو أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجالِ

وجه مصطفى ووجه فريد ، كلاهما لازم لوقت
(الشغل) فقط !

حافظ رمضان بك [1]

لو أنك لم تكن رأيتَ محمد حافظ رمضان بك وبدا لك أن تَتَمثَّل رئيسَ الحزب الوطنى القائم على المطالبة بمصر والسودان، مضافًا إليهما الملحقاتُ، سواء منها ما فى يد الإنجليز وما فى يد الطَّلّيان وما فى يد الأحباش، وجلاءِ الجيش الإنجليزى بلا قيد ولا شرط، ولا مساومة، بل ولا مفاوضة ولا اتفاق، ولا .، ولا .. إلخ .. لما استطاع ذهنك أن يتمثَّله إلا رجلاً عنيفًا حادّ الطبع ثائر الأعصاب، إذا قاولَك، وبخاصة فى شأن عام ، تَفَجَّر عن مثل بركان!.. ولكن ما أعظمَ خيبةَ الخيال حين تقَع عينك على حافظ رمضان بك ويضمك مجلسه، فإنه لا يروعك إلا أن ترى رجلاً وادعًا هادئَ السَّعْى بطىء الحركة إلى حدّ الجمود، تكاد تَقْطع بأنه قد فقد كلَّ اتصال بين أعصابه وبين مَعَارِف وجهه. حتى لتوشك ألاّ يتغير عليها شىء من مظاهر العواطف المختلفة. وإنه ليتحدّث إليك فى القانون، ويتحدَّث إليك فى السياسة، ويتحدّث إليك فى جميع الأسباب الدائرة بين الناس فيجيد الحديثَ إجادة ينقطع من دونها الوصف، جزالة علم، وصحة رأى، ومتانة حجة، وقوة بيان، فى حلاوة نَبْرة وعذوبة صوت وأنه ليُثير عواطفَك، وإنه ليَبْعَث معارف وجهك على التشكُّل طوعًا لما أثار حديثُه فيك من عاطفة، أما هو نفسُه فساكنٌ وادع، فتنصرف عنه وأنت تكاد تحسب أنك إنما كنت تسمع الحديث من «فونغراف» متقن بديع يدور فى هيكل إنسان!

---

(١) هو محمد حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى بعد محمد فريد، وأحد الوزراء القانونيين وأحد الكتاب والخطباء، ولد فى القاهرة وتخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٤م، واحترف المحاماة، وأصدر جريدة اللواء المصرى سنة ١٩٢١م، وانتخب نقيبًا للمحامين ، وتولى وزارة الشئون الاجتماعية ، وعرف بنزاهة اليد والضمير ، اعتزل السياسة سنة ١٩٥٢م إلى أن توفى . انظر الأعلام (٦/ ٧٧).

والواقع أن الله تعالى قد وهب هذا الرجل قَصْدًا واعتدالاً فى كل شىء، فهو معتدل الخَلْق والتكوين، معتدل الأخلاق والسجايا، معتدل الحركة والسعى ، معتدل الحديث والرأى، وهو ، فى الوقت نفسه ، رئيسُ الحزب الوطنى ! ومبدؤه المطالبةُ بمصر والسودان والملحقات، وجلاءُ الجيش الإنجليزى عن جميع البلاد ، بلا مساومة ولا مفاوضة ولا اتفاق !

الحق أنى لو كنت فى موضع حافظ رمضان بك لكانت مهمَّتى أشقَّ مهمة رجُل فى العالم، على أن حافظ بك يضطلع بها فى غير كُلْفة ولا عناء! وللعظيم العظائم.

ومحمد حافظ رمضان ابنُ المرحوم حافظ بك رمضان، وكان رجلاً منقَطع النظير فى العِلم المالى يومَ لم يكن لمصرىّ فى هذا الباب خَطَر، وكانت أعظمُ المصارف ، الأجنبية بالضرورة، ترجع إلى رأى حافظ بك فى أدقّ مسائل الفن وأبعدها أثَرًا.

وَأَنْجَبَ عدةَ أولاد وأحسن تأديبهم وتعليمهم فخرجوا جميعُهم رجالاً ممتازين، فيهم القاضى وفيهم المحامى وفيهم الجندى ، وها أنت ذا ترى أحدَهم، وهو الذى نعقد له هذا الحديثَ، فى كبار المحامين ورئيسَ حزب جليل الشأن فى البلاد.

نعم، لقد بانت مواهب حافظ من يوم دَرَج لطلب العلم ، وما برح يَبْرَع فيه أقرانَه حتى أحرز إجازة الحقوق (ليسانس) وأقبل على المحاماة مُجدًّا أمينًا حتى تمَّت كفايته وبَعُدَ فيها صيته ولما يزل بعدُ فى فَوْعة [1] الشباب، يُعينه فيها علم غزير، وعقل شديد، وبديهة حاضرة، وحجة قاهرة، وبلاغة ساحرة؛ كل أولئك فى صوت كأنما تختلج به أوتار عود، وكذلك كان حافظ بك خطيبًا رائعًا جليلاً.

وقد اتصل من صدر أيام الشباب بفقيد الوطن المغفور له مصطفى كامل باشا وظل معه إلى أن قُبض إلى رحمة الله، فكان شأنه كذلك مع المغفور له فريد بك إلى أن شطَّت به النوى؛ فما برح هو كذلك موصولَ الاسم بالحزب الوطنى حتى اختير له رئيسًا.

---

(١) فوعة الشباب : أوله.

ومما يُذكر فى هذا الباب أنه كان دائمًا شديدَ التَّوافى لأساطين الأحزاب الأخرى حتى فى الأوقات التى كان السيد وفيق يرميهم بالمُقذِعات فى جريدة الحزب من غير حساب!

ولقد يبدو لك حافظ رمضان بك كسولاً لا يُحب أن يُجَشِّم نفسَه من الأمر جليلاً ، على أنه إذا جَدَّ الجِدُّ كان أنشطَ من الكوكب السيار.

ومن أعجبَ ما يُؤْثرَ له من هذه النَّاحية أنه قد بدا له فى صيف العام الماضى، إذ هو فى أوربا، أن يتَسلَّق قمةَ جبال الأَلْب (Mont Blanc) وعبثًا يحاول صُدَّقانه [1] أن يصرفوه عن هذه النية؛ والعبث بالعُروج إلى قمة الألب إنما هو ضَربٌ من العبَث بالحياة نفسها. ويجمع حافظٌ همّتَه وعنادَه معًا ، ويخوض مهاوِىَ الموت خوضًا حتى يبلُغ غايته، ثم يتدلَّى عن قمة الجبل (بالسلامة) والموت خزيان ينظر! ويظفَر بتلك الشهادة (شهادة المعراج إلى قمة الأَلب) ولم يظفر بها من المقاديم إلا قليل، فكان أيضًا حَقَّ (Sport) رَغم ما يُرمى به من فرط الكسل وشدة الخمول!

وهو شديد الوَلَع بالشِّطْرنج حتى لقد يجلس فى رُقعَته خمسَ ساعات متواليات لا يلحَقُه فيها ضَجَر ولا يتداخَلُه سَأم.

ولقد يظل طوالَ هذه المدّة وفَمُ (الشيشة) فى فمه ، أو فاغرًا فاه فلا تسمع منه إلا تَغَمُّغًا يهمس به أحيانًا، أو (كش مات) فى غاية كل دَسْتٍ ينعقد له فيه الظَّفَر!

وبعدُ فلا أدرى أكان حافظ رمضان بك فى قَرَارَة نفسه ومَطاوى حسه شاعرًا يُحَلِّق فى أجواز الخيال أم لا؟ على أن جلستَه الطويلة يُوَسِّد فيها خدّه على كفه مهدَّل الشفة ثابت المَحْجرين فى جانب الأفق، لقد تدلُّك على أنه شاعر بعيد الخيال، ولعل هذا المعنى فيه هو الذى يتخطَّى سائر مواهبه فيعقِد الصِّلة بينه وبين مبادئ (الحزب الوطنى)!

---

(١) جمع صديق كالأصدقاء.

ومع هذا كلِّه فلا مَحيص من أن تقع المشاكل بين حافظ بك وبين نفسه كلما (زنقته) الحوادث بينه وبين مطالب حزبه. ولكن حافظ بك ، كما أسلفتُ عليك ، رجل خَرَّاج ولاَّج، لا يُغَمُّ عليه مُشكِل ولا يُعييه أمر جُسَام، فإذا حَزَبَه من ذلك شيء عَمد إلى حل بسيط سهل معقول مقبول، وهو أن تُعجِلَه مسألة (فيحط كتف) على أوروبا معذورًا مُشَيَّعًا بطيِّب التمنيات !

أليس هذا حلاً سائغًا معقولاً ؟

وبعدُ فإذا كان التطرُّف فى الرأى السياسىّ ضربًا من الشِّعر، فما أعذَبَ هذا الشِّعرَ وما أحوجَ تكافُؤَ النَّزعات السياسية إليه؛ على أنه إذا تجاوز حدَّه وخرج عن أفُقه فقد أصبحَ له فى توجيه سياسة البلاد شأنٌ آخر.

ولو كان لى من الأمر شيءٌ لدعوْتُ بشركة (حافظ رمضان - عبد الحميد سعيد إخوان) فخيَّرتُها أمرين: إما ترك التغالى فى الاستجوابات والعوض على الله، ولو مؤقتًا، فى الملحقات. وإما أن تتولَّى الوزارةَ، وعندَها مُهلة شهرين لتجىء فيها بالنيل من مَنْبعه إلى مَصبَه ، والملحقات وملحقات الملحقات. والجلاء الكامل بلا مساومة، ولا مفاوضة. (وكمان) بلا اتفاق ! على شرط أن تؤخذ عليها التعهدات ، بعدم (حططان الكتف) على أوروبا وقت الأزمات!!

على مفوضينا وقناصلنا فى جميع أقطار العالم
موافاتنا تلغرافيا بآخر (مودة) !

إبراهيم وجيه باشا

طويل، ضافى الجسم، متراخى الأطراف، تَتَسَرَّح العينُ منه فى منظَر غير مُؤتَلف ولا متَّسِق، وبعبارة أخرى إن عينك لا تكاد تسقط عليه حتى تشعر بما بين خَلقه وبين (قيافته) من سوء التفاهم! فهو شديدُ العناية بهذه (القيافة). وهو لا يُعنَى بشىء من مظاهِر الدنيا عنايته بها، وإنه لَيخَيَّل إلىَّ أنه يطوى عامّة ليله وصَدْرا من نهاره فى مطالعة مجلات (المُودَة) ونشرات الشيك وكلما سقط فيها على طَريف أسرع إليه فتجمَّل به وتأنَّق، وتحلَّى به وتألَّق: فمن خواتيم تلمع فى الخناصر والبناصر، من شَتَى الألوان فى شتَّى الجواهر ، ومن رباط للرقبة (كرافات) تحتار العين فى أزرقه وأسوده وأحمره، وأبيضه، وأخضره وأصفره؛ حتى كأنما قُدَّ من أنوار بُستان، وففيه من كل زهرة زوجان ، تجرى كلُّها فى مذاهبها حتى تلتقى عند لؤلؤة بيضاء، أو زمرُّدة خضراء، أو ياقوتة حمراء، فكأن هذا «الدبوس» من تلك الألوان ملتقَى العُشاق ومجتمع الخُلان. ومن حلة محبوكة؛ (محذَّقة) مسبوكة؛ كأنما مَوَّه بها جلدَه تمويها، فإذا تبدَّى لك فيه حسبته عاريًا وهو كاس! إلى حذاء ! وناهيك بهذا الحذاء ! ليس يتخذ الباشا حذاءَه من مصر كلهاً، ولا من أفريقيا أجمعِها، ولا من كل ما يُدسَّى من سِلَع الغرب إلى الشرق، بل أنه ليُفصَّل له تفصيلاً من مصنع (Lob) الشهير فى لندن، وثمنُ الزوج، على ما يروى الباشا نفسُه، تسعة جنيهات إنجليزية «طبعًا» ، أما الحِذاء نفسُه، كما شهدناه، فدقيقٌ لطيف، رقيقٌ خفيف، قاس، على نعومته، شديدُ القسوة حتى ليأبَى إلا أن يُخرج أَسيرَتَه (رِجْلَ الباشا) صَغيرةً دقيقة هَيْفاء!

فإذا أنت ارتفعتَ بالنظر إلى طَرَفِه الآخر رأيت على رأسه طربوشًا طويلاً ضيقًا أيضًا، على أنه ، ولله الحمد، على رأسه متَّسِقٌ مسبوك!

وهو يُميله دائمًا إلى ناحية من رأسه فيصوِّر لك من فضل جبينه زاويةً لا أدرى مقدارَ حظها من الهيبة أو الجمال!.

ولو تمثّلتَه وقد بَعُدَ ما بين كتفيه، وتقارب ما بين كَشْحيْه، وما يزال يتقارب فى منازله إلى مُسْتَدَقّ حذائيه، لرأيت منه مخروطًا معكوسًا، أو على الأصح قمعًا مكفوءًا !

قلت لك فى صدر هذا الحديث إن بين خَلْق وجيه باشا وبين (قيافته) افتراقًا وسوء تفاهم، وأَكُرّ على هذا الآن فأقول لك : إنه مع كل هذا التأنق وكل هذا التجمُّل ، وكل هذه النفقات، وكل هذه التكاليف لا يزيدك فى مَرْآهُ على أميرالاى فى المعاش!!

وإبراهيم وجيه باشا رجل طيب القلب لا يَصْدُر عن أذى ولا يصدر عنه أذى ؛ متواضعُ النفس، متواضع التَّفكير. لقد أصبح فى الواقع وكيلاً لوزارة الخارجية فى الدولة، ولكن أدبه وتواضعه لا يُطاوعانه قط على الترافع إلى هذا المعنى ؛ وإنهما ليغُضَّان حتى من تفكيره فى مُقتَضَيَات ذلك المنصب الرفيع!إنه لرجل متواضعٌ حقًا فى كل شىء ! ولو أنك داخَلْتَه مهما داخَلْتَه ولابسته مهما لابسته، لا يمكنك أن تُحس منه أىّ اعتداد بالنفس يشعرك أنه أصبح وكيلاً لدائرة، فضلاً عن أنه أصبح وكيلاً لوزارة خارجية الدولة نفسها! وأيسرُ الدلائل على هذا موقفه العتيد فى مجلس النوّاب يوم ثار حديث (بيوت هوس) وما اقتضى خزينة الدولة من نفقات جسام!

وهو كذلك رجل متواضع الحديث، لقد يستغرق المجلس بالحديث عن نفسه لا عن مركزه فى الحكومة ولا عما يَعْتَرى الدولةَ من مشاكلَ ومتاعبَ فى جغبوب ، ولا مما يراد من فرض امتيازات لإخواننا الشوام أيضًا فى مصر، بل المفاوضات المقبلة فى تقرير مصير الدولة - بل إنما يحدّثك عن المفاوضات المقبلة بينه وبين طاهيه، وإنَّ له لطاهيًا عظيمًا، وأن طاهيه لعبقرى؛ يَصْدَع بعبقريته حدودَ الفن، أليس الطُّهاة جميعًا يُقَرّبون ، يوم الوليمة إلى الضِّيفان، (البامية) بعد رأس الطعام (الحمل أو الدندنى أو السمك)؟

ولكن طاهيه قَرَّب مرة لضيفانه بعد رأس العطام صفْحَة من الفاصوليا الخضراء مباشرة! أليس هذا عبقريةً تستحق كل إعجاب وإطراء ؟!

وسبحان من أودع كلَّ قلب ما شَغَله، وإذا كان قلب وجيه باشا مشغولاً بأشياء وأشياء، فإن قلبه من شؤون الدولة كلِّها هَواء.

يُهَرول فى الصغير إذا رآه وتُعْجِزُه مُهِمَّات كِبَارُ

وقد نسيتُ أن أذكر لك أن للباشا شاربا لَبِقًا هو الآخر، ظريفًا، دائم التشكُّل والتكيُّف بحسب (آخر مودة) فتراه مرفوعًا ومَرةً مخفوضًا، وتارة مفتولاً وتارة منقوضًا، وآنا مرسَلا وآنا (مكْويّا) ، وحينا مستقيمًا وحينًا ملويًا ؛ وأسود يومًا ويومًا أغبر، وأصفر طورًا وطورًا أحمر.

ولا نُحب أن نَترَ الرجلَ حقه ، فقد أحرز إجازة الحقوق (ليسانس) فى غير عسر ولا تأخُّرٍ فى الطلب، ثم دَلَفَ إلى مناصب القضاء فَرقِيَ فى درجها واحدة بعد واحدة معروفًا بالاستقامة والنزاهة والنشاط وعدم الميل مع الهوى، وزامَلَ ثروت باشا فى نشأته كما زامَلَه فى بعض المناصب التى تولاَّها ، وفى النهاية عُيّن مستشارًا فى محكمة الاستئناف المختلطة. فكان خيرَ مثال للكِفاية والاستقامة؛ فمستشارًا ملكيًا. وهنا بدأ القلق يَدِبُّ إلى حظه من التوفيق فى مناصبه الحكومية!

وإذا كان قد نُفِض عن القضاء جملةً وقُلِّد منصبًا سياسيًا (وكالة الخارجية) وبخاصة فى العهد الحاضر - عهد المسئوليات الكبرى - فلم يتمكَّن منه تمكُّنَه من منصب القضاء فليس الوزر عليه هو ، ولكن على من أخطأهم فيه التوفيق!

فإن لم تكُ (المرآةُ) أبدت وسامة

فقد أبدت (المرآةُ) جبهة ضيغم

حافظ إبراهيم بك [1]

وجاءت نَوبةُ صديقى حافظ فى (المرآة) ولم تُغْنِ عنّى المطاوَلةُ ولا كثرة الدِّفاع ، كذلك حتم أصحاب «السياسة الأسبوعية» وبذلك جَزَم القضاء:

فـإنك كـالليّل الذى هو مُـدرِكى وإن خلتُ أن المنتـأى عنك واسـعُ

إذن سأجلو حافظًا فى هذه «المرآة» وأرمى فيه بالقول، وإذن سأدخلُ فى الوَرْطة وتحقّ علىّ الكلمة فى كل حال! وَيْحَ نفسى من عَنَتِ أهل العَنَتِ من القراء؛ فإننى إن قلت فيه خيرًا قالوا: شهادة صديق لصديق، فهى متَّهمة مُهدَرَة، وإن قلت شرًا قالوا: ما أنكَرَه للوُدّ وما أكفَرَه!

وما لى لا أعوذ من ألسن هؤلاء بالحق، فالحق أَجْدَى من مصانعة هؤلاء. وعلى هذا فإنى سأُطلِق كلمةَ الحق فى صديقى حافظ، وأعوذ بالله تعالى أن يلحَقنى فيه قولُ ذلك الحكيم : « إن قول الحق لم يَدَع لى صديقًا» ولا

---

(١) هو الشاعر المعروف الشهير بهذا الاسم «حافظ إبراهيم» واسمه محمد حافظ بن إبراهيم فهمى المهندس، شاعر مصر القومى، ومدون أحداثها نيفا وربع قرن، ولد فى ذهبية بالنيل كانت راسية أمام «ديروط» وتوفى والده بعد عامين من ولادته، ثم ماتت أمه بعد قليل وقد جاءت به إلى القاهرة، فنشأ يتيمًا، ونظم الشعر أيام الدراسة ، ولما شبَّ ألف شعر الحداثة جميعًا، واشتغل مع بعض المحامين بطنطا، ثم القاهرة ، ثم عمل محاميًا، ولم يكن للمحاماة يومئذ قانون يقيدها، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج سنة ١٨٩١م. برتبة ملازم ثان. أقام مدة بالخرطوم وألف مع بعض الضباط جمعية سرية وطنية اكتشفها الإنجليز فحاكموا أعضاءها وكان من بينهم حافظ إبراهيم، فأحيل إلى الاستيداع فلجأ إلى الشيخ محمد عبده وكان يرعاه ، فأعيد إلى الخدمة فى البوليس، وعين فى دار الكتب المصرية، كان حافظ إبراهيم قوى الحافظة، راوية ، سميرًا، مرحًا، حاضر النكتة، جهورى الصوت ، مهذب النفس، وشعرهُ لا يخفى على أحد وبه يعرف. توفى حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٢م. انظر الأعلام (٦/ ٦٧).

تنس بعد هذا يا سيدى القارئُ مبلغَ ما يضحِّى به الكاتب المسكين فى سبيل رسالة يؤدّيها قلمه إليك لتلهو بها خمسَ دقائق أو ستًا ، وهو لا يطمع منك فى أكثر من أن تَقْصِده فى حكمك، وتترفَّق فى نقدك وشتمك؛ والتضحية فى هذه المرة ليست بجسم يُتعَب، ولا بمال يُغصَب، ولا بقلم يُغلَب، ولا بسب يُجلَب؛ إنما هى باستهداف وُدّ دام إحدى وعشرين سنة للجَلْجَلة بَلْه الزوال؛ وهى كانت مَتْنَ الصِّبا، وهى كانت نضْرة العمر، وهى هى الذكرى الباقية لحُلو الحياة لمن أبرَمه مُرُّ الحياة!

ما لى قد غَشينى من هذه العواطف المحزونة الوالهة، حين عَرَض لى اسم حافظ ما لم يَغشنى قبلُ لاسم إنسان؟ وفيمَ كلُّ هذا ولعلِّى لا أُصيب فى صديقى إلا خيرًا ! حقًا إنى لأخشى أن أكون اليوم مريضًا وأن الأمر كله من لوثة الأعصاب. فإن كنت معافًى صادق الوزَن فإننى أرجو أن يكون صديقى حين تقَع له هذه المقالة معافًى متَّزِن الأعصاب.

حافظ إبراهيم شاعر؛ فهو يُحب الجمال ويجتمع له، ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذاك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحَرَّف؛ وما إن طلع عليه فتى دميمُ الخَلْق غير مستوى معارف الوجه إلا قال له : يافتى ، ليس الوزْر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤدّ مهرًا! وإذا اطّردت نظرية حافظ فلا شكَ فى أن المرحوم والدَه تزوج على الطريقة الأفرنجية فلم «يدفع» مهرًا بل هو الذى أخذ «الدوطة» !

جَهْمُ الصوت، جَهْم الخَلْق، جَهْم الجسم . كأنما قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة، ثم فُكِّر فى آخر ساعة فى أن يكون إنسانًا فكان «والسلام» ! أما ما يُدْعَى فَمَه فكأنما شُقّ بعد الخلق شقًا، وأما عيناه فكأنما دُقَّتا بمسمارين دقًا، وأما لون بَشرته، والعياذ بالله، فكأنما عُهد به إلى «نقاش» مبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان فدافَ أصفرَها فى أخضرها فى أبيضها فى «بنفسجيها» ، فخرج مَزجًا من هذا كلِّه لا يرتبط من واحد بسبب، ولا يتصل بنسب، وإنك لو نَضَوْتَ عنه ثيابه وألبسته دُرَّاعَةً من دونها سراويل، وأفرغتَ عليه من فوقها جُبة ضافية، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات، لخلته من فَورك دِهْقانا من دهاقين الفرس الأقدمين !

فإذا جرّدته كله وأطلقته فى البرّ حسبته فيلاً، أو أرسلتَه فى البحر ظننته دَرْفيلا! ولكن ! .. ولكن اكشف بعد هذا عن نفسه التى يحتويها كل ذلك، فلا والله ما النور بعد الظلام، ولا العافية بعد السَّقام؛ ولا الغنى بعد البؤس، ولا إدراك المنَى بعد طول اليأس؛ بأشهى إليك، ولا أدخلَ للسرور عليك من هذا حافظ إبراهيم!

خفيف الظل، عَذْب الروح، حُلْو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة، بديع المحاضرة، إذا كُتِب لك يومًا أن تشهد مجلسَه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك أنك فى بستان تعطَّفت جداوله، وهتفت على أغصانه بلابله، وأشرق نرجسه وتألَّق ورده، فأذكراك طلعةَ الحبِّ: تانك عيناه وهذا خدّه! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجبْ لمن ينشُره هذا النسيم كيف يموت! والبدر فى مُلكه بين المَجرَّة والجوزاء، يخلع على الروض حُلّة فضِّية بيضاء، فلا تدرى أأمست السماء فى الروض، أم أمسى الروض فى السماء؟

ولم أر قطُّ رجلاً أسرعَ منه حفظًا ولا أثبت حافظة؛ ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثبًا حتى يأتى على غايتها، وإذا هو قد استظهر أكثر جملها، أو أبياتها إن كانت قصيدًا ، وإذا هى ثابتة على قلبه على تطاوُل السنين ، كذلك لم أر قط رجلاً اجتمع له من متخيَّر القول ومصطفى الكلام مُرسَلا ومقفًّى مثل ما اجتمع لحافظ إبراهيم، فكان حقًا له من اسمه أوفر نصيب، وإذا كنتَ ممن يجرى فى صناعة الكلام على عِرْق وَهُيِّئ لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبّ على سمعك عُصارة الشعر العربى وأبدعَ ما انتضَحَت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن. ويمكنك أن تعدَّ بحق حافظًا أجمع وأكفى كتابًا لمتخيَّر الشعر العربى عُرف إلى اليوم. وليتهم ، إذ يُشْرف على السن، بدلَ إحالته على المعاش يحيلونه على أحد (دواليب) القسم الأدبى فى دار الكتب، إذن لعصموا عليها ذخيرةً هيهات أن تعوَّض على وجه الزمان.

وإذا أردتَ أن تتعرّف لون شعره وإلى أىّ وادٍ من أودية الكلام ينتسب، فارجع إلى أكثر ما يهتف به ويردّده من شعر من قبله من الشعراء، وإنه فى هذا الباب لَيؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونَسْج الكلام، وما بعد

هذا عنده ففضْل . وهو يرى ، ولقد يرى معه كثيرٌ ، أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلُّق بدقائق المعانى وإن تزايلتْ من دونها الألفاظ، وأن أدقّ المعانى وأجلَّها لقد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم؛ أما إشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يَبْهَرُكَ ويروعك ويُشيع فيك كلَّ الطرب قولُ البحترى مثلاً:

ذاك وادى الأَرَاك فاحبسْ قليلاً ... مُقِصرًا فى ملامةٍ أو مطيلا
لم يكن يومُنا طويلاً بنعمانَ ... ولكن كان البكاءُ طويلا

وقوله:

وقفةً بالعقيق نطْرح ثقْلاً ... من دموعٍ بوَقْفَة فى العقيق

وقول الشاعر:

يا ليتَ ماءَ الفُرات يُخبرنا ... أين تولَّتْ بأهلها السُفُن

وقول الشاعر العربى:

فسائِل بنى جَرْمٍ إذا ما لقيتهم ... وسعْدًا إذا حَجَّت عليك بنو سعْدِ
فإن يُخبروك الحقَّ عنّى تجدْهُمُ ... يقولون أبلَى صاحبُ الفَرَس الوَرْدِ

وغير هذا من رائع الشعر ما لا يتناوله الحصر.

وبعد ، فأىّ معنى فى مثل هذا يرتفع على ما تَبْتذل به العامة فى أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم ! إنما خطره كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الأسلوب، ولو قد ذهبت تُؤدّى بلغة أخرى أفخَر ما نظم البحترى وأبو تمام وأضرابهما من أعيان الشعراء ما خرجتَ من ذاك بجليل، بل لو أنك تعمّدتَ أبلغ ما قالوا فنقضتَ غَزْله ونثرتَ نظمه ما عَدَا أن يكون كلامًا من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام!

هذا رأى حافظ فى الشعر، وتلك أيضًا صورة من شعره! مشرق الديباجة جَزْل اللفظ صافى القول، محكم النَّسْج، رصين القافية . ترى معناه فى ظاهر لفظه ، فإذا أقبل عليك يُنشِدك من شعره أبصرت البيت يَسْتَشْرف

وحده للقافية استشرافًا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ إبراهيم .

وحافظ، كما أسلفتُ عليك مؤمن كلَّ الإيمان بالصنعة ، ولقد يَسنَح له المعنى الدقيق فيحاول أن يُشكّه بالقريض، فإن أصابه فى غير قَلَق ولا إعنات للَّفظ أو إخلال بقوة النظم، وإلاّ صَرَف لغيره وجهَ القريض؛ ولربما أصاب المعنى الرفيع فيَسَّرَه للنظم تيسيرًا حتى يخيل لك، إذ تتلوه ، أنك فى كلامٍ من جنس سائر الكلام!

وهو ، كما حدّثتُك، حاضر البديهة رائع «النكتة» يتعلق فيها بأدقّ المعانى فى جميع فنون القول؛ فلا يحتويه مجلس إلا رأيته يتَنَزَّى تَنَزِّيًا من ضحك ومن طرب ومن إعجاب. وهو كذلك شديد الفطنة حُلو الملاحظة لا يكاد يَعْرِض لسمعه أو لبصره شىء إلا وَجَّه عليه رأيًا طريفًا يصوغه فى «نكتة» عجيبة قد تستقرّ على سُطوح الأشياء، وأحيانًا تتغلغل إلى الصميم حتى تتكشَّف الأيام منها لا عن طُرْفة متَطرف ولكن عن رأى حكيم! وهو لا يتحامَى فى تطرُّفه ولا يتحرَّج ، فتراه يقتحِم عليك بتندره كلَّ مداخلك أنَّى سَنَحَت له اقتحامًا، فيُصيب من خَلْقِك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك؛ على أنه فى كل هذا مُرضيك ومُؤنِسك وباسطٌ أسارير وجهك إن لم يُفرِّج بالضحك من ثناياك ، فأما إذا كنت رجلاً ضيق العَطَن مُتَزمِّت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ إبراهيم.

وهو أجود من الريح المُرْسَلة ، ولو أنه ادخَّر قسطًا مما أصابت يده من الأموال لكان اليومَ من أهل الثَّراء ، على أنه ما فتئ طِوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الألَف جُنَّ جُنونُه أو ينفقها فى يوم إن استطاع. فإذا استغلَقَت عليه أحيانًا وجوهُ السبل لإتلاف الأموال عَدّ هذا أيضًا من معاكسة الأقدار! ولعل هذا من أنه نَضِجَت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر، فهو ما يَبْرَح يطلب البؤس طلبًا

ويتفقَّدُه تفقُّدا إيثارًا لتجويد الصنعة والتَّبريز فى صياغة الكلام، وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظًا يحققها بيده إذا قَصَّرَت فى تحقيقها الأيام . وإنه لفَنَّان (Artiste) حقًا، وإن فيه لَكُلَّ أخلاق الفنانين: تَوَلَّه بالطعن من جميع أقطاره، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك؛ أما أن تتولَّى فنّه وتَسلُك بالطعن صنعته، فذلك الكسر الذى لا يُجبر، وذلك الذنب الذى لا يُغفر؛ وذلك مُثَار الدمع ما يزال هاميًا، وذلك مُتَنَزَّى الجُرح ما يفتأ على الزمان داميًا.

والعجب أن حافظًا نفسه ضيق العَطَن قليل الصبر سريع الغضب، وياويلَ الأرض منه والسماء إذا تعجَّل أمرًا فألبثَ دونه دقيقة واحدة ، إذن لهاج هياج الصبى فما يُجدى فيه التصبير ولا التعليل . وما أبدعَ غضبته وما أحلاها ساعة يَهُمّ بركوب مركبة فى الطريق فيرى الخيل قد خُلعت عنها أَرْسانُها، وهناك تسمع منه ، وهو يكاد يتميز من الغيظ، أبدع النكات وأدقّها، وقد عَجلت إليه الشيخوخة قبل السن،وضربته أعراضُ السبعين إذ هو لم يُذَرِّف كثيرًا على الخمسين،ففاض من أُنسه غير قليل، وشُغِل بالمرض أو بتوهُّم المرض، فما يلقاك إلا أبثَّكَ علَّة طارئة وطالعك بشَكَاةٍ جديدة، وتتقسم أوهامه مراجعة الأطباء والمتطببين، وترديد النظر فى كتب الصحة والأقرباذين، فما سمع بعلة إلا أحس أعراضها، ولا وقع على عَقَّارٍ من العقاقير إلا اتخذه وتداوى به!

ومن أظرف نوادره أن صديقًا له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس متربِّد الوجه فسأله ما به ، فقال له : «إن المُصْران الأعور عندى ملتهب» فقال له صاحبه : وبماذا تشعُر؟ فقال: أشعرُ بوجَع شديد هاهنا، وأشار بيده إلى جنبه الأيسر، فقال له : «إن المصران الأعور» إنما يكون فى الجنب الأيمن لا الأيسر! فإجابه حافظ من فوره : « يمكن أكون أنا يا سيدى أعور شمال» !!

ولا أحسب شاعرًا يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ ، وإن له لصوتًا جهيرًا فَخْمًا رائع المقاطع، فإذا هو وَقَفَ يُنشد الجماهير هزَّها هزًا ورفع بالترتيل حظّ الكلام درجات على درجات.

ولا ننس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر إنشاءً وترجمةً، فلقد طالما استخرج من مَجْفُوِّها صيغًا طريفة بليغة أدت كثيرًا من الأسباب الدائرة بين الناس مما تتحرَّكُ معانيه فى الأنفس ويُعْيى أداؤه على الأقلام.

وحافظ إبراهيم، ولا شكَّ، من مفاخر هذا العصر ومن مباهجه معًا ، أسأل الله أن يبسُط فى عمره وأن يرزقه العافية، على أن يقتنع هو أنه فى عافية!

وبعد، فإذا كنت يا صديقى قد وَتَرْتُك بعضَ حقك ولم أعرض جميع مزاياك فلكيلا أجعل لأحد سبيلاً إلى الاتهام؛ وإذا ظَن بى شانئ أنى لم أَتسقَّط كل هَنَاتِك، إن كانت لك هناتٌ أخرى، فما كان الوُدّ ليرينى إلا الخير فى أصدقائى ؛ على أننى أعتذر إليك فى الأولى ؛ وأعتذر إلى القرّاء فى الثانية ، وأستغفر الله فى الحالين، وأسأله تعالى أن يصرف عنى محنة الكتابة ويتوب علىَّ من فن الكلام.

وهمها فى العلا والمجد ناشئة

وهم أترابها فى اللهو واللعب

هدى هانم شعراوى [1]

لقد تعرف أن العرَب إنما أخذوا علم المنطق عن اليونان وعرّبوه تعريبًا، ودوَّنوا فيه الكتب ، وأشاعوا البُحُوث، وضربوا الأمثلة؛ على أنهم فى كل ذلك لم يخرجوا عن الأفق الذى رسمه اليونان حدًّا للمنطق تدورُ فيه قضاياه، وتتكيَّف أقيسته فى أشكاله المقسومة؛ وكل أولئك مَرَدُّه عندهم إلى العقل، وإلى العقل وحده ، فأما القضايا الوجدانية، وأما الأقيسة الشعرية، فلا اعتبارَ لها ولا اعتدادَ بها فى معرِض الاحتجاج.

وبهذا أضحى المنطق شبيهًا بالرياضة إن لم يكن شُعبةً منها . وأما الفلسفة الحديثة، فلسفة الغرب، فقد تبسَّطَت قواعدُها حتى تناولت نَجْوَى القلب وحديث الوجدان ! وأدخلت هذا فى جملة الأقيسة التى تُعتبر نتائجها؛ ولقد يكون هذا من الحق ، فإن شعور النفس أحيانًا لا يقل صوابًا عن حساب الذهن، بل لقد يسبق الوجدان أحيانًا ويستشرف إلى ما لا يهتدى إليه العقلُ، وينقطع من دونه جُهد التفكير، فليس عدلاً وليس حقًا أن يُسقط الإنسان هذه الأداة القوية النافذة من أسباب تعرُّفه واستكناهه لحقائق الأشياء !

---

(١) هى هدى بنت محمد سلطان باشا رئيس أول مجلس نيابى بمصر، ولدت فى «المنيا» بصعيد مصر، وقرأت القرآن ، وانتقل أبوها إلى القاهرة، فنشأت بها ، وتعلمت مبادئ العلوم واللغتين التركية والفرنسية، وتزوجت من على باشا الشعراوى، وبه عرفت على طريقة الأجانب «هدى شعراوى» وكان زوجها أحد أعضاء الجمعية التشريعية وكان ثريًا شديد الثراء، توفى زوجها سنة ١٩٢٢ م وخلف لها ثروة ضخمة. شاركت هدى فى المظاهرات النسائية فى ثورة ١٩١٩م. وكانت قد ألفت جمعية الاتحاد النسائى فى مصر، وشاركت فى كثير من أعمال البر والخير، توفيت بالقاهرة سنة ١٩٤٧م. انظر الأعلام (٨/ ٧٧).

على أن هذا أيضًا لا يَسلَم من الخَطَل، فكثيرًا ما يكون مَوقعُ الرأى فى الوجدان أثرًا من آثار الهوى، أو حكم البيئة ، أو الظرف الخاص، أو طول الاعتياد، أو نحو ذلك مما تَتَّجه به نزعات النفس دون أن يكون للحقائق فى نفسها أىُّ اعتبار.

وإنما سقتَ هذه المقدّمة الطويلة، المملَّة أيضًا، لأقرّر أننى ، فى مسألة المرأة رجُل رجعىّ، لا أَرُدُّ هذا إلى قياس منطقى عقلىّ، على الطراز القديم، إنما مَردّ الأمر كله إلى قياس وجدانى على الطراز الحديث. نعم لا أدعى أننى حرّكت فى الأمر عقلى فأثبتَ لى ، بعد ترتيب الأقيسة المنطقية ، أن «نهضة المرأة المصرية» غير ميسورة أو غير صالحة ، إنما هى نَزْوة الوجدان لا تُلهمنى من هذا إلا أسى وتطيُّرًا!

وأهاب بى صديق: «فيم تقصُر مراياك على الرجال وفى النساء من هنّ أفضل من كثير؟» وأوّل من تَنَظَّرت لى من سيدات العصر، من غير تردّد، هُدَى هانم شعراوى» ولكن ! .. سُرعان ما مَثَّل لى تداعى المعانى أيضًا مسألة «النهضة النسوية» إذن سأكتب فى السيدة هدى هانم شعراوى، وإذن سأعرض، برغمى ، لحديث «النهضة النسوية» .

على أننى لم أرَ السيدة النبيلة، ولا بد لى قبل أن أريها مِرآتى أن أراها، ولابد لى قبل أن أتحدّث عنها أن أتحدث إليها، فكيف السبيلُ إلى كل ذلك؟.. ذلك أن أتشفَّع إليها بصديق لأسألها فى مسألة خيرية .

ولقد تفضلت السيدة الكريمة وأذنْت لى فى التمثُّل لها فى قصرها الفخم القائم بإزاء دار الآثار، أو القائمة بإزائه دارُ الآثار.

مَضيت إلى الموعد ورأسى يزدحم بجلائل الأفكار عن هذه السيدة النبيلة المزدحم تاريخُها بجلائل الأعمال . ولقد ثار المصريون فى صدر سنة ١٩١٩ يطلبون نصيبهم فى الحياة ، وأبَتْ كرائم السيدات أن يتخلَّفن فى الخدور فَنَفَرْن ، فى خفة إلى الجهاد ، وفى طليعتهن كانت السيدة هدى هانم شعراوى؛ ولقد يُسيغ الرجل الرجعى «مثلى» هذا لأننا كنا فى جهاد. وهل

خلا جهاد من أثر للسيدات عظيم ؟ وهادَننا الإنجليز وهادنّاهم، وسكت المدفع وتكلمت السياسة، وآبت أكثر العقائل إلى خدورهنَّ تاراكاتٍ ذاك للرجال؛ فذلك ، فى رأيى من شأن الرجال وحدهم . وأبت هدى هانم فى سرب من ربات الحجال، إلا أن تجول فى السياسة مجالاً، ولعله عزَّ على بنت سلطان باشا الذى مثَّل خديو مصر فى البلاد يوم حاصر العرابيون الخديو فى الأسكندرية وكَفُّوه عن ولاية الحكم، والذى جَرَّد عليه بعض الثائرين السيف فلم يَتَتَعْتع عن التشبث بما اعتقده منجاة للوطن؛ ولعله عزَّ على زوجة على شعراوي باشا الذى كان ثالث ثلاثة خاضوا ، فى يوم الرَّوْع، مدافعَ السلطة وأسنَّتها ، وراحوا يقولون لعميدها فى شمم وقوة: إن مصر تريد حريتها لأنها لا تطيق حياة الرِّقّ، فإذا كنتم ترومون أن تتصلوا بها فلتكن صلة الأَكْفَاء بالأَكْفَاء لا السادة بالعبيد - لعله عَزَّ على هذه السيدة التى خاضت المجدَ من كل أطرافه أن تسكن أو تبلغ مصر غاية مُناها من الحرية والاستقلال.

على أنها ما لبثت فى مَيْدان السياسة أن فطنت إلى أن لها مهمة أخرى لو حَرَّرَت لها مواهبها العظيمة ، لكان ذلك أَرَدَّ على بنى وطنها ، بل على قضية هذا الوطن، ولقداجتمع للسيدة هدى هانم ما لم يجتمع لكثيرات فى هذه البلاد ، اجتمع لها الحَسَب ، والغنى ، والذكاء ، والنشاط، والغيرة الشديدة على النفع العام.

وشاء الله لهدى هانم، أو على الصحيح ، شاء لحظ مصر أن تُقبل هذه السيدة بكل مواهبها على ما هو أخْلَق بها ، فرأت أن المرأة المصرية مظلومة فحق أن تُنصَف، محرومة ، فحق أن تُعطَى، جاهلة ، فحق أن تَتَعلَّم؛ وأنفقت ما شاء الله من مالها وجاهها ومساعيها حتى شَرَعت الحكومة قانونًا لِسِنّ زواج البنت، وحتى فَرضت من عنايتها نصيبًا عظيمًا لتعليم البنات، ومازالت السيدة تلحُّ بمساعيها على الحكومة فى شأن المرأة، ومازالت عناية الحكومة تتَّسع لهذا الإلحاح الكريم.

أما من جهتها هى فقد راحت تعمل على تهذيب المرأة المصرية وتعليمها

ورفع شأنها بكل ما دخل فى إمكانها من الذرائع: فمن إنشاء مدرسة، إلى إقامة ملجأ، إلى تشييد مشغل، إلى نشر مجلة، إلى إلقاء المحاضرات العامة فى شؤون التربية والتعليم.

ولم تَقنَعْ بكل ذلك فأقامت مصنعًا للخَزَف تُحيى به صناعة وطنية قديمة من جهة، وتَعْصِم به من جهة أخرى طائفة كبيرة من الفتيان المتبطِّلين من التشرد والاطِّراد فى طرق الشر والإجرام . ويضيق العمل فى داخل البلاد عن مساحة همتها فتهاجر كل عام إلى ديار الغرب لتهتف باسم مصر وتُعلى من قدر المرأة المصرية هناك.

وأظنُّ السيدة هدى هانم شعراوى أولَ سيدة مصرية مثَّلت بنات جنسها فى بلاد الغرب، فقد وَفدَت على روما من بضع سنين وانتظمت عُضوًا فى المؤتمر النسوى الذى عُقد هناك، وألقت بين أهله خطابًا نفيسًا دلَّ القوم على أنهم كانوا فى عقيدتهم فى السيدة المصرية جدَّ مخطئين.

وَوَفَدَت صيفَ هذا العام على باريس ودخلت عُضوًا تنوب عن نساء مصر فى المؤتمر النسوى الذى حضره رئيس الوزارة ووزير المعارف كلاهما. ومما يذكر لها بالإعجاب أنها لاحظت أنه قد رُفعت فى قاعة المؤتمر أعلامُ الدول التى ينتمى إليها الأعضاء جميعًا ما خلا مصر، فلم تتوانَ عن الجَهر بما لاحظت ، فاعتذر إليها القائمون بشأن المؤتمر وأكدوا لها جُهْدَ قواهم أن الأمر لا يمكن أن يُصرَف إلا على مجرد السهو ، وبادروا إلى العلم المصرى فرفعوه بين التحية والتصفيق؛ ولما انتخب أعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية كان بينهن ، ولا فخر ، ممثلةُ نساء مصر هدى هانم شعراوى.

كل هذه الأفكار كانت تساورنى فى طريقى إلى قصر السيدة هدى هانم شعراوى ، إلا أننى ، كما أسلفت إليك ، فى مسألة «النهضة النسوية» رجعىّ وإذا كنت أخاف شيئًا من وفادتى تلك ، فهو أن تُغيِّر السيدة هدى هانم رأيى فى المرأة ، والمرأة المصرية على وجه الخصوص!

وأنت إذا جَدَدت فى التفكير انتهيت إلى أن أكثر ما يستريح إليه الناس

وما يختمون عليه قلوبهم فى معاقِد آرائهم مَدِينٌ لهذا النوع من الأنانية فى الإنسان؛ وإن المرء ليؤمن بالرأى حتى ليقاتل فى سبيله ويبذل مهجته من دونه، وما كان هذا الرأى نتيجة منطق سليم ولا وليد تفكير صحيح ، بل لقد يكون أثرًا من آثار التقليد أو طول الاعتياد أو حكم الظرف الخاص أو غير ذلك من مختلف الأسباب. وإن الزمن ليعقد بين المرءِ ورأيه إلْفًا ومَوَدَّة؛ وتلك العلة فى نفورك من كل من يكشف لك عن مواقع الخطأ فى رأيك ويحاول أن يُزعجك عنه إلى ما ربما كان الصوابَ، ولقد لمس المتنبى هذا المعنى فى قوله :

خُلِقتُ ألُوفًا لو رجَعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبى مُوجَعَ القلبِ باكيًا

وبلغتُ قصر السيدة الفَخْم وقادنى الخادم غرفة صُنعت على «الطراز العربى» وقد افتنَّت اليد الصَّنَاع فى سَقْفها وجُدرانها ومحاريبها وأثاثها وثُرَيَّاتها وصُوَرها وتَهَاويلها حتى خُيِّل إلىَّ أننى إنما أعيش فى القرن الرابعَ عشر لا العشرين ، وجاء شابٌّ من قَرَابة السيدة فدعانى وسار بى فخُضْنا بَهْوًا عظيمًا هائلاً يتحيَّر الطرف فى بديع أثاثه ورائعة تُحَفِه ، حتى أفضَى بى إلى غرفة مبسوطة الجَنَبَات أُثِّثت بفراش مِنْ طراز لويس السادسَ عشر، وزُينت جوانبها بَغَوالى الطُّرف، كما زينت جدُرُها بأبدع ما جالت به أيدى المصوِّرين. والواقع أن عينك لا تقع ، أنَّى دارت، إلا على مظهر من مظاهر الغنى؛ إلا أن ذهنك سُرعان ما يستغرقه شعورُك بما فى ذلك النظام من دقة ذوق وروعة جمال. وهناك استقبلتنى السيدة النبيلة مرحِّبة وأومأتْ إلى كرسى كبير (فوتيل) فجلستُ وجلستْ.

ولست أعالج من وصف سيدة ما أعالج من وصف الرجال فى هذه «المرآة» ؛ إلى أننى لا أكتمُ القارئَ أن هذه السيدة تُحيط بها هالة من جلال تَحسِر النظَر عن تصفُّح ما فى معارف وجهها من قَسَامة وجمال؛ وذلك البريق فى عينيها قل أن يقع على مُحَدّثها بل أنها لتشرُدُ به فى ناحية أخرى فى فتور طَرْف، على أنك لو استطعت أن «تنشل» منه فى غفلة منها نظرة واحدة أقنعتك تمام الاقتناع بأن نظرها إنما يتجاوز المحيط الذى

أنتما فيه ببعيد، والواقع أنها سيدة مفكرة ؛ والظاهر أنها لا تنقطع عن تفكير عميق. محتشمة الثوب ، محتشمة المجلس، محتشمة القول، محتشمة الابتسام.

وانتهى دور التحية ولم يبق لى بدّ من الكلام . فقلت لها : ياستى ، إنما جئت لأسألك فى بعض ما تُعانين من الأعمال؛ فأجابتنى فى دهشة قد تنطوى على شىء من الإنكار:

- لقد أخبرونى يا سيدى أنك آتٍ لتسألنى فى مسألة خيريَّة!

- وهل ثمَّ خير أبلغ وأجمع مما تعالجين يا سيدتى من وجوه الأعمال؟ .

- تفضل فسلْ عمَّا شئت.

- قَبَل كل شىء لا أُكتمك أننى رجلٌ لا أقول بالسفور ولا أذهب مذهب السفوريين، ؛ بل إنى أعترف بأكثر من هذا ! أعترف بأننى فى مسألة «النهضة النسوية» ما زلت رجعيًا.

- رجعى! ولماذا؟ وما حجتُك على هذا الخلاف لجماعة السفوريين؟

- لست أتكلَّف لهذا حجة، بل لعله رأى طبعتنى عليه البيئة بحكم نشأتى فى بيت محافظ.

وهنا ابتسمت السيدة النبيلة ودارت ببصرها دورة سريعة وقالت فى بطء يتَداخَله شىء من العَجَب: وأين نشأتُ أنا؟ .. وكأنها بهذه الكلمة الصغيرة تقول لى بأبلغ البيان: وهل نسيتَ أننى نشأت فى أكبر بيت فى الصعيد له كلُّ تقاليده المأثورة، وعاداته القاسية الموروثة؟ فأجبْتُها من فَوْرى: وهذا يا سيدتى مما يَزيد فى العَجَب!

- ليس الأمر بدْعًا كما تظن، فإن أمة تريد أن تحيا وأن تأخذ مكانها تحت الشمس إنما تعبَث بعقلها وكرامة تفكيرها إذا ظنّت أنها بالغة من ذلك ونصفُها أشلّ! وكيف يرقى الرجال إذا لم يَرْقَ النساء ؟ وكيف ينتظم حال بيت تدبرُه امرأةٌ جاهلة لا رأى لها في الحياة ولا كرامة ولا خطر؟ وكيف تريدُ للأمة رجالاً صالحين أكْفَاء للحياة المَجيدة القوية إذا كان يتولاَّهم فى بدء نشأتهم ويَطْبَع تفكيرهم أمهاتٌ جاهلاتٌ وضيعاتُ التفكير؟

- يلاحظَ يا سيدتى أنه فى هذا الوقت الذى قويتْ فيه الدعوة إلى السفور خرجَت كثيراتٌ من السيدات عن آفاقهنّ سَواء فى ملبسهنّ وفى غير الملبس من مطالب الحياة! وتُرَى هل هناك صِلَة بين الأمرين؟

- إن دعوة السفور ما كانت يومًا لتنطوى على هذا التبرُّج وهذا السلوك الذى تُنكره ونُنكره كلنا معك، فإذا ظن ظانّ أن من السفور ما تفعل بعض سيداتنا، مع كثير من الأسف، من الابتذال فى مجالس الرجال والرقص ونحوه فهو فى أشدّ الضلال، وإذا كان بعضُ السيدات قد تطرّفن فى سلوكهن فما كان ذلك إلا نتيجةَ «التطوّر» الاجتماعى؛ ونحن إذا دعوْنا إلى السفور وعملنا بجهدنا على تحقيقه فإنما نفعل ذلك لنَكبَح جِماح هذا «التطور» ونسير بالمرأة الشرقية فى الطريق النافع المأمون.

- وإنك يا سيدتى لَتُجاهدين كثيرًا فى أعمال البِرّ، فهل لك أن تُصوِّرى لى شعورَك كلما أدْركتِ من عملك نجاحًا؟.

- إننى إذا كان قُدِّر لى فى مساعىّ نجاح كما تقول فإن شعورى مشغولٌ عنه بمعالجة ما لم يتهيَّأ بعدُ له النجاح . ثم قالت فى تواضع عظيم: إن خُطَانا ما زالت بِطَاءً وخُطَى الأيام سِراع!

- لعلك يا سيدتى لا تزنين تمام الوزن أَثَرَ المجهود العظيم الذى بذلتِه على الأيام لأن أقل الناس إدراكًا لنموّ الطفل هما أبواه.

- على كل حال فإنه ما زال بيننا وبين الغاية التى نطلبها بَوْن بعيد، فإذا لم نُدركها نحن رجونا أن يُدركها مَن بعدَنا مِن الأجيال.

وهنا استأذنتُها داعيًا لها بالصحة وطول العمر؛ وانصرفتُ لا أدرى أبَقيتُ على رأيى «الرجعى» فى النساء أم لا؟ إلا أننى رأيتُ لسانى يردّد قولَ المتنبى:

ولو كان النساءُ كمَنْ رأينا لفُضِّلَت النساءُ على الرجال

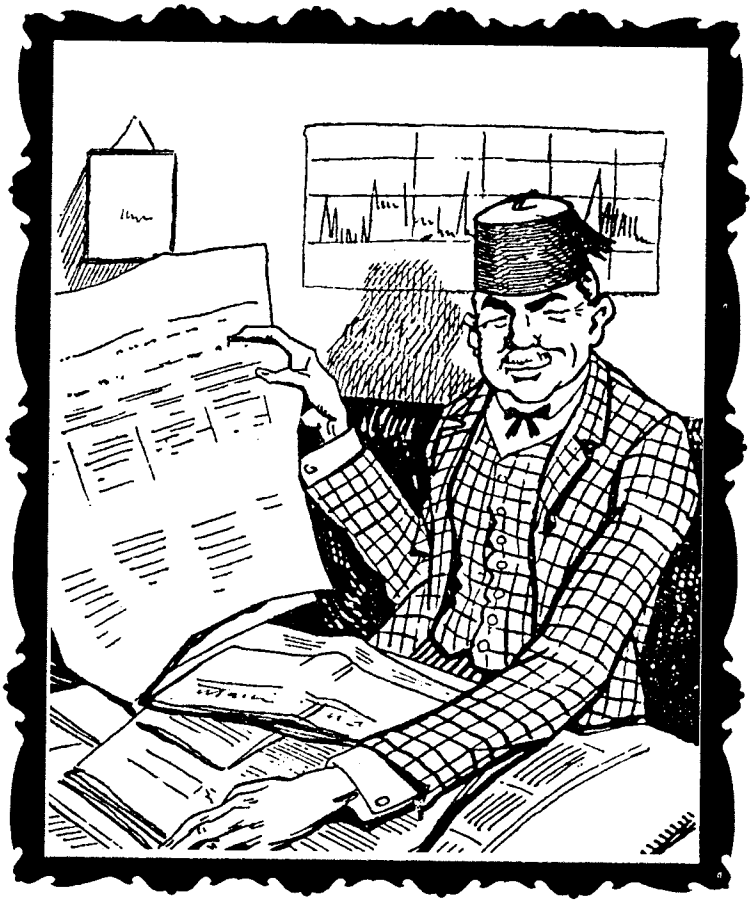

من ذخائر الأمم

إسماعيل صدقى باشا [1]

ما رأيتُ رجلاً افترقتْ فيه أهواءُ الناس كما افترقَت فى إسماعيل باشا صدقى: فلقد أحبّه قوم أشدَّ الحب، وأبغضه قوم أشدَّ البغض، وبقِى فيه آخرون متحيِّرى المذاهب متَرَجْرِجى الآراء، وليس يَشغَل الناسَ بكل هذا إلا عظيمٌ [2].

ولقد رزقه الله قَصْدًا فى كل ضواحى خَلقه: فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالبدين ولا بالهزيل، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء؛ له وجه لطيف مستدير، وفم حلو تترقْرَق عليه ابتسامة حُلوة، يحدّثك فى هَوَادَة وظَرْف حتى لترى فيه خَفَرَ الكاعب وارتياحَ الغلام؛ ولا تجده ، مهما

---

(١) هو إسماعيل صدقى باشا بن أحمد شكرى بن محمد سيد أحمد، سياسى مصرى فى سيرته قسوة وعنف ، ولد بالأسكندرية سنة ١٨٧٥م وتعلم بمدرسة الفريز، ثم التحق بمدرسة الحقوق، وولى وزارة الزراعة ، وعمل مع الوفد المصرى فى بداية تأليفه، واعتقل مع سعد زغلول، وآخرين بمالطة سنة ١٩١٩، وبعد خروجه من السجن انقلب على الوفد، وعين وزيرًا للمالية سنة ١٩٢١ وولى رئاسة الوزراء ، فغير الدستور المصرى وأنشأ حزبًا سماه «حزب الشعب» وفتك ببعض العمال، وكان الجمهور المصرى يمقت حكمه، فاستقال من الوزارة، ومات فى باريس سنة ١٩٥٠م. انظر الأعلام (١/ ٣١٥).

(٢) وقد كتب محرر الكشكول عن إسماعيل صدقى يقول: «وقد تقف إلى البحر العظيم، وهو مسترسل السكينة مستقر الهدوء، له لجة نائمة وثورة مكنونة ومع ذلك يغشاك منه ما يغشاك لأنك تعلم أنه هو البحر ، وأنه عالم وحده.

وقد تقف إلى الأسد فيغريك به سكون الكبرياء، وجمود الذى لا يكترث لشىء من الأشياء: ونظرة متواضعة وخطرة متراجعة وخطوة ينقلها الوقار، وترسمها رزانة الجبار ولكنك مع ذلك تجد فى أعماق نفسك رهبة ومهابة لأنك تعلم أنه هو الأسد :ثم أرأيت النسر جاثمًا والصقر محوّمًا ، والبلبل مغردًا، والغزال شاردًا، وهل أبصرت السماء بدرًا وشمسًا، والحديد شدة وبأسًا، والقضاء ينزل مجهولا، والشفاء يزورك عليلاً؟ كل أولئك إسماعيل باشا صدقى، فإن جهلته بعد ذلك فأنت سارى الليل يجهل الكوكب طالعًا، وسارب النهار لا يرى الضوء ساطعًا». انظر الكشكول عدد ١٧ ديسمبر ١٩٢٦م.

لَجَّ بكما الحديثُ وتعلق بما يحفِّز ويثير ، إلاَّ وادعَ النفس مطمئنَّ القول عذب الصوت ، يقاولُك فى الجُلَّى كما يقاولك فى أتفه الشئون حتى لتحسبن هذا الهيكل الذى يجتمع عليه نظرك لا يُجنُّ إلا طاقات من الزَّهَر، أو قِطَعًا من نسيم السَّحَر؛ فلا غضب ولا مراح ولا ضِغْن ولا وَجْد ولا غريزة من تلك الغرائز التى تتفجَّر فى صدور جميع الأحياء ! ولكن ارفع بصَرك إلى عينيه تجد هناك كلَّ ما يصول به اللسان، وتتنَزَّى به فى الحادثات جوارحُ الإنسان! ولِصدقى باشا عينان حديدتان، وهما مستديرتان فى غير سَعَة، وقد ركَّز الله فيهما مظاهر كلِّ ما فى الرجل من ألوان العواطف، فإذا استرسلَت نفسُك منه إلى مثل صفاء الغدير ، فاحذر فلعلَّك بين براثِن لَيْث خادر! ولصدقى باشا صلعة شديدة الوضوح تنْحَدِر إلى مؤخَّر نافوخِه حتى لتعرفنَّه بها مُوَليًا كما تعرفه مقبلاً.

ويَهَب الله له دِقّة فى الحس وصفاء فى الذهن لم يَهبهما لكثير من الناس. وإليهما يرجع الفضل أعظمُه فى كل ما أدرك من براعة ونُبوغ، ولصدقى باشا كلُّ مواهب الرجل الفنِّىّ حقًا؛ ،وإنه لم يعالج من يوم نَشْأته إلى هذه الغاية موضوعًا فى هذا الباب إلا بَرَعَ فيه وأَوفَى على نهاية الإحسان، وبهذه المواهب تهيأ لإسماعيل صدقى أن يكون أكبرَ رجل مالىّ فى البلاد، لا أريد مؤلفًا ولا محاضرًا ، وإنما أريد رجُل عمل أنقذ بمهارته ميزانية الدولة مرَّة وكان قد أشرف بها سلَفُه على الدمار. وما يزال يعالج بتلك العبقرية الفَذَّة ميزانيةَ الدولة وزيرًا وعضوًا فى مجلس النواب.

وقد تطلَّعت الآمال من بضعَ عشرةَ سنة إلى وضع مشروع جامع لترقية شأن البلاد من الوجهتين: المالية والاقتصادية ، وعُهد بهذا إلى «لجنة» من أهل الخَطَر فى هذه الأمور مصريين وأجانب، وتولَّى صدقى باشا رياستها فبحث فى كل مرافق البلاد لم يَدَعْ دقيقة ولا جليلة فى ذاك إلا حرَّرها ودلَّ على مواضع النقص فيها، وكيف تُطلَب أسباب الكمال لها؛ وخرج بمشروع عظيم لو أن مصر وُفِّقت إلى الأخذ به والسير بمرافقها على ما رُسم فيه لكان لثروتها المسكينة اليومَ شأنٌ آخر!

وهو من أعلا المُثُل للكفايات الواسعة المَشبوبة التى لا تتحرَّج بمطلب ولا تتخَذل عن الغاية؛ وأنّى شارَك فى عمَل كان المُجلِّى وكان أوَّلُ نظره جماعَ الرأى فى النهاية. ومما يؤثَر له أن المجلس الاقتصادى - ولا تنسَ أنه من بعض آثاره فى وزارة المالية - انتخبه رئيسًا للّجنة الفرعية التى عُهد إليها وضع النظام الجمركى، فأعَدّ برنامجًا بديعًا اتخذته اللجنة دستورًا لها ومازالت تترسَّم آثاره إلى الآن.

ومما يُحصَى له، إن كانت تُحصَى مفاخر آثاره ، تلك المحاضرة الرائعة التى ألقاها فى العام الماضى على محامى المحكمة المختلطة فى موضُوع الامتيازات الأجنبية وعلاقتها بالضرائب. وما كان أعظَم انتصاره إذ يَضرب تلك الامتيازات فى أمنع قلاعها، ثم يتدلَّى عن المِنبَر بين تهليل صَفوَة «الأجانب» وهُتافهم الطويل!

وأحرز صدقى باشا إجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وسنُّه لم تَتَشَرَّف بعدُ على الثامنة عشرة ، وخرج إلى مراكز النيابة فلم يَظهر له فيها كبير خَطَر؛ وأىّ خطر كبير يمكن أن يتهيَّأ لعضو نيابة محدود السعى محدود العمل؟ ولكنه ما كاد يُولَّى سكرتيرية المجلس البلدى فى الأسكندرية حتى ظَهر نبوغه وظهرت معه تلك الجرأةُ النادرة. ويقبِض رجل مصرى لأول مرة على ناصية المجلس البلدى فيضبط إدارته ويعمَل على أن يطهره من أدرانه تطهيرًا.

ثم جىءَ به سكرتيرًا عامًا لوزارة الداخلية فوكيلا لها، فكان له شأنٌ أكبر من شأن «موظف» مصرى فى ذلك الزمان. وأنَّى صار صدقى باشا فى مناصبه صارت معه الدقة والفِطنة إلى خفايا الأمور والاضطلاع من مهامّ الحكم بكل عظيم.

وتولَّى الوزارة فلم يُطل به الحظُّ فيها فاعتزلها ولبث فى داره بضع سنين، إلى أن أُلِّفَ الوفد فى أعقاب سنة ١٩١٨ ليتحدَّث على قضية مصر فانتظم فيه صدقى باشا . وكان رابعَ أربعة من رجالاته امتدَّت إليهم يدُ السلطة العسكرية فنفتهم عن البلاد إلى جزيرة مالِطة ، حتى إذا أُطلقوا بعد تلك الأحداث الجُلَّى، انطلقوا من فَوْرهم إلى باريس حيث وافاهم سائر

أعضاء الوفد، وهناك جعلوا يرفعون صوت مصر ويطرقون بطَلَبتها كل باب، ويسعَونَ إلى استقلالها ما وجدوا إلى السعى سبيلاً. وإذا كانوا رفعوا صوتَ مصر فلقد رفعوا كذلك رأسَ مصر؛ وإذا كانوا دوّنوا فى إثبات حقِّها صحائف خالدةً على التاريخ، فإن اسم إسماعيل صدقى سيظَلّ فى أجلِّ هذه الصحائف خالدًا على التاريخ.

وفشَت ، مع الأسف، فاشيةٌ انقبض على أَثَرها صدقى باشا عن العمل، وصدَر أَدْراجَه إلى مصر، وبقى فى عُزلته حتى كانت الوزارةُ العدلية فى أوائل سنة ١٩٢١ فتقلَّد فيها وزارة المالية ، وشَخَص فى الوفد الرسمى إلى لندن فى تلك السنة . وإذا كان قد شارك فى بحث المسألة السياسية فقد انفرد ببحث المسائل الاقتصادية التى تعلَّقت بها المفاوضات ، فكان فيما حرره منها حقّ لِبق وحقّ خبير.

وتعلم أن ثروت باشا قد استخرج فى سنة ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبراير وإعلان مصر دولةً مستقلةً ذات سيادة، فلا تنس أن صاحبه صدقى باشا كان وَزَرَه فى هذا السعى وعونه بما جلَّى من التفاصيل، وما أبدع صدقى يكمِّل ثروت إذا عَرَضتْ عظيماتُ الأمور ، هذا لخطْب السياسة الضخْم، وذاك لما يتكئ عليه حلُّ المعضلات من دقائق الموضوعات.

فكيف بهذين مع عدلى بعَينه العالية ونظره السياسى القدير؟ وكيف بثلاثتهم مع الزعيم الجليل سعد باشا وما اختصَّه الله به من شدّة نفس وقوة حُجة وصلابة عود؟.

ولقد حق للأمم الناهضة بهذا أن تَغبط مصر؛ وإن مصر ببركة هذا الائتلاف المقدس لبالغةٌ غرضها الأسمى إنَ شاء الله.

وبعدُ فلقد لبثت مصرُ بضع سنين وعيشُها السياسى قائم على تنابذ قادتها وتناحر أحزابها، كلٌّ يعمل للقضاء على غيره حتى إذا خلا له وجهُ الأمر تولّى حلَّ قضية البلاد على ما قدَّره هو لتحقيق أمانى البلاد. ويستحرّ القتال ويرمى كلٌّ عدوَّه بما ملكت يده من أسباب الهلاك . ويأبى حارس الكنانة ألا أن يُبَصِّر الصَّفْوة من القادة وأعيان أهل الرأى بأنه إذا كان هناك من يستفيد بهذه السياسة الدامية فليست هى مصر على أىّ حال!

وما إن أَهَابَ بالقوم ذلك الداعى النصيحُ حتى أُلْقِيَ السلاح ونُضِيَتْ الدروع، وخَشَعت القلوب وفاضت العيون بالدموع، ومشى الأخُ إلى أخيه يستعتبه فيُعْتِب؛ وهُرِع الولد إلى أبيه يستعطفه فيعطف ويحدب، وتُبزَل الأضغان وتسلُّ الأحقادَ، فيجتمع الأحبابُ من كل نادٍ ، فلا ترى ألا عَطفًا يملأ الأفئدة ورحمةً تسيل بها الأكباد.

شواجِرُ أرماحٍ تَقَصَّفُ بينها ... شواجِرُ أرحامٍ مَلومٍ قطيعُها
إذا احتَرَبتْ يومًا ففاضت دماؤها ... تذكرت القُربَى ففاضت دموعُها

وكذلك أصبحت البلاد بنعمة الله صفًا واحدًا يرمى فى غرض واحد بعد أن كانت صفوفًا يرمى بعضُها بعضًا. وصدقى باشا رجل شديدٌ فى رأيه يعمل له بكل ما أوتى من قوة، وهو من أكبر العاملين على ترك سياسة الفُرقة إلى سياسة الوئام، وصَلَ الله فى عمرها إلى غاية الزمان، فكان شديدًا فى الأولى كما كان شديدًا فى الثانية، ومن يُنكر عليه هذا فهو لا يَدين بمنافع البلاد حيث كانت ، ولكن يدين بعبادة الأشخاص حيث تكون!

وهل كان هذا فى شرع السياسة بدعًا؟ وهذه دول الغرب التى نأخذ عنها أساليب الحكْم ونتروَّى وجوهَ التصرف فى السياسة لقد تتعادَى أحزابها وتتفانى ، وينضح بعضها بعضًا بالمكروه؛ حتى إذا حدثت الأحداث تصافحت الأيدى، واتحدت الكلمة وتلاحَمَت الصفوف،ودخل رجالٌ من بعضها فى وزارة يُنْمَى رئيسُها الآخرين، والأمثلة على هذا أوفر من أن يتناولها البيان.

ولقد كان سعد وعدلى وثروت وصدقى من فجْر النهضة حزبًا واحدًا يدينون برأى واحد، ويَسعوْن لغرض واحد، فهل يُعدّ عَليهم اليومَ أن تنحسِر الفتنة بينهم وأن يعودوا كما بدءوا قلبًا واحدًا، وقد جدّت الأحداث، لإنقاذ حياة البلاد؟!!

ولعل صدقى باشا يمتاز عن أصحابه بشدّة العصبية لأهله ومعشره فلا يفتأ يتفقَّدهم ويتَوافَى لهم ويصلهم بكل ما دخل فى ذَرْعه، ولقد يُفْرط فى هذا إلى الحد الذى يبعَث ضعاف الأحلام، على إنكار ما أوصت به المكارم من صِلة الأرحام!

وصدقى باشا، فى بابه، عُدّة قوية للبلاد، وهو لا يكلّ من العمل ، على فرط ذكائه ، ولا يَمَلّ . ومما تحدث به عنه أعرف النَاس به أنه حين كان

وزيرًا للمالية لم يكن يُرهِق كبار موظَّفيها بطول المراجَعَة والاستِخبار ، بل كان يتكئ على فطنته واختباره وحدَهما فى مذاكرة ما يَدفعونه إليه من الأوراق. ومما تحدّثوا به عنه فى هذا الباب أيضًا أنه كان فى غاية اليوم تُحمَل إلى داره خرائطُ ثلاثٌ أو أربع تُجن كلَّ ما يجرى من الأعمال فى وزارة المالية فيُكبُّ على دراستها من الساعَة الخامسة من صباح اليوم التالى فلا تدخل الساعةُ التاسعة إلا وقد قتلها بحثًا ومراجعة واستَوَى له فى كل منها الرأىُ النصيح.

وإنَّ خِطَّةً عظيمًا ألاّ يُستخدم على الدوام للنفع العام، فإذا أخذه شانئوه بهنة فما كان هذا ليتنَقَّص أقدار الرجال ، إلا إذا تنقَّصت الكهوف أقدار الجبال، ولعلهم فى هذا أيضًا كانوا مسرِفين!

من صدقى باشا إلى محرر المرآة

وقد تفضّل حضرة صاحب المعالى إسماعيل صدقى باشا فبعث إلى محرّر «المرآة» بالكتاب الآتى:

عزيزى الأستاذ الفاضل

أشكر فضيلتكم كثيرًا لمرآتكم الناصعة وإن كنتُ لا أُخفى عنكم أننى لم أتعرّف صورتى تمامًا خِلالَها؛ بل أخشى أن تكونوا قد بالغتُم فى تجميلها وتزيينها.

وأرجو قَبول تحياتى.

المخلص

إسماعيل صدقى

١٧ يناير سنة ١٩٢٧

(محرر المرآة) وليس لى يا مولاىَ ما أقولهُ فى هذا المَقام غير قول الشّاعر:

فلَو (صوَّرتُ) نفسَك لم (أزِدْها) على ما فيكَ من شَرف الطِّباع

بصير بأعقاب الأمور كأنما
تخاطبه من كل أمر عواقبه